كيف دخل التتـر بلاد المسلمين ؟

(الأدوار الخفية في سقوط الخلافة العباسية)

تأليف
سليمان بن حمـد العـودة

الطبعة الثالثة
1422هـ - 2001 م

دار طيبة للنشـر والتـوزيع
الرياض

بين يدي البحث

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعـوذ بـالله مـن شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا مـن يهـده اللـه فلا مضـل لـه ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شـريك له، وأشهد أن محمدا عبـده ورسـوله. اللهـم صـل وسـلم عليـه وعلى سائر الأنبياء والمرسلين.

وبعـد :

فـإن دراسـة التاريـخ لا ينبغـي أن تكـون ميـدانا للسـلوة وتزجية الفراغ، ومهما فصل عامل الزمن بين الحدث والحـديث فالفرصة قائمة لأخذ الدرس والعبرة.

وعلى دارسي التاريخ بشكل عـام، والتاريـخ الإسـلامي علـى وجـه الخصـوص أن يتجـاوزوا سـرد الحـدث والإكتفـاء بإحصـاء القتلى أو الجرحـى لهـذا الحـدث أو ذاك، ويغوصـوا فـي العمـق باحثين عن الأسباب ومنتهين إلى نتائـج تجعـل دارسـة الماضـي سلّماً للنجاة بإذن الله في الحاضر والمستقبل.

إن فقه المرويات، وعبر الحوادث، وتحليل الوقائع هدف كبيرٌ مـن أهـداف دراسـة التاريـخ وبـدونه تصـبح الدارسـة التاريخيـة تجميعا لا يسمن ولا يغني من جوع.

وإذ أخـذ المتقـدمون علـى عـاتقهم رصـد الحـدث بمرويـاته المختلفـة ورسـموا الصـورة بشـكلها الإجمـالي، ولـم يسـعفهم الوقت أو لم يكن في منهجيتهـم تحليـل هـذه الروايـة أو الحكـم على تلك؛ فإن على المتأخرين استكمال هـذا الجهـد وسـد هـذا النقص، والخروج بنتائج تجعـل مـن الحـدث فـي الماضـي عـبرة للحاضر، ومؤشرا لاستصلاح المستقبل بإذن الله.

ودخــول التــتر فــي بلاد المســلمين نمــوذج لهــذه الأحــداث التاريخية التي تحتاج إلى جلاء على الرغم مما كتب فيها، وأرجـو أن يكون منهجي في هذه الدراسة التحليليـة نموذجـا لمـا أصـبو إليـه ومـا يتطلـع إليـه الدارسـون فـي دراسـة أحـداث التاريـخ الإسلامي.

ولست بمستغن عن أي ملاحظة تسدد نقصا هو من طبيعة عمل البشر، والشكر أقدمه سلفا لكل من ساهم بملاحظـة مفيـدة أو لم يبخل علي بدعوة بظهـر الغيـب صـادقة، أصـلح اللـه أحـوال المسـلمين ووقـاهم الشـرور والفتـن وصـلى اللـه علـى سـيدنا محمد.

الباحث

* * *

توطئة

كانت فاجعة ((التتار))، وهمجية ((المغول)) مـن أعظـم مـا بلي به المسلمون. ولعل الذين عاشوا محنتها كانوا يظنون فيهـا نهاية للإسلام والمسلمين.

وعلى الرغم من هذه المحنة وما سبقها مـن محـن أو تلاهـا فقـد بقـي الإسـلام كـالطود الشـامخ؛ تحطمـت علـى صـخراته الصماء مكائد الماكرين، وظهرت معجزة الإسلام حين عاد بعثـه من جديد في الأجيال اللاحقة من أبناء المسلمين، بل لقـد دخـل فـي الإسـلام طائفـة مـن هـؤلاء بعـد أن كـانوا مـن الرعـاع المتوحشين.

لقد أحجم – في البداية – العلمـاء المعاصـرون عـن الكتابـة عن محنة التتار لهول الفاجعة، فبقي ((ابن الأثير)) (ت 630هـ) عدة سنين معرضا عن ذكرها استعظاما لها، وهـو القائـل: "فيـا ليت أمـي لـم تلـدني، ويـاليتني مـت قبـل حـدوثها وكنـت نسـيا منسيا" [1].

1() ابن الأثير: الكامل (12\358).

ويقـول أيضـا: " فلـو قـال قائـل إن العـالم منـذ خلـق اللـه سبحانه وتعالى أدم وإلى الآن لم يبتلوا بمثلها لكان صادقا، فـإن التواريخ لم تتضمن ما يقاربها ولا ما يدانيها"[1].

وهي عنده أعظم من فـتنة الدجال[2]، بل لقد اقسم أن مـن سيجئ بعدها سينكرها وحـق لـه ذلـك: " وتـالله لا شـك أن مـن يجئ بعدنا إذا بعد العهـد ويـرى هـذه الحادثـة مسـطورة ينكرهـا ويستبعدها والحق بيده... ولم ينل المسلمين أذى وشدة مذ جاء النبي صلى الله عليه وسلم إلى هذا الوقت مثل مـا دفعـوا إليـه الآن" [3].

هذا الوصـف كلـه مـن ابـن الأثيـر وهـو لـم يشـهد فـاجعتهم الكبرى بسقوط بغداد سنة (656هـ) وقتـل الخليفـة العباسـي وسفك دماء المسلمين، وهي فاجعة تضاهي ما سبقها بل تـزيد، ويمكن القول إنها فتن يرقق بعضـها بعضـها – وسيتضـح – حيـن الحديث عنها – حجم مآسيها وضخامة أحداثها.

1() الكامل 12\358.

2() الكامل 12\359.

3() المصدر نفسه 12\375،376.

كما أن ابن الأثير لم يشهد كذلك أحداث التتر في نهاية القرن السابق الهجري (699هـ) حين عبروا الفرات إلى بلاد الشام وما حولها، وما حصل للمسلمين في هذه الفترة من البلاء والمحـن، حتى أذن الله بزوال هذه المحنـة وكشـف اللـه عـن المسـلمين هذه الغمة. وهي فتنة بليت فيها السـرائر وانقسـم النـاس فيهـا فرقا شتى، وقد أجاد شيخ الإسلام ابن تيمية –وهو شاهد عيـان– في وصف الحدث وهوله، وموقف الناس بإزائه فقال: "فينبغـي للعقلاء أن يعتبروا بسنة الله وأيامه

في عباده، ودأب الأمم وعاداتهم لا سيما في مثـل هـذه الحادثـة العظيمة التي طبق الخافقين خبرها، واسـتطار فـي جميـع ديـار الإسلام شررها، وأطلع فيها النفـاق ناصـية رأسـه، وكشـر فيهـا الكفر عن أنيابه وأضراسه، وكـاد فيهـا عمـود الكتـاب أن يُجتـث ويخترم، وحبل الإيمان أن ينقطع ويصطلم، وعقر دار المــؤمنين أن يحل بها البوار، وأن يزول هذا الدين بإستيلاء الفجــرة التتــار. وظن المنافقون والذين في قلوبهم مـرض أن مـا وعـدهم اللـه ورسـوله إلا غـرورا، وأن لـن ينقلـب حـزب اللـه ورسـوله إلـى أهليهم أبدا، وزين ذلك في قلـوبهم، وظنـوا ظـن السـوء وكـانوا قوما بورا، ونزلت فتنة تركت الحليم فيها حيران، وأنزلت الرجل

الصـاحي منزلــة السـكران، وتركــت الرجــل اللــبيب لكــثرة الوسـواس ليـس بالنـائم ولا اليقظـان، وتنـاكرت فيهـا قلـوب المعارف والإخوان، حتى بقي للرجل بنفسه شغل عن أن يُغيـث اللهفان. ومّيز الله فيها أهـل البصـائر والإيقـان مـن الـذين فـي قلـوبهم مـرض أو نفـاق وضـعف إيمـان، ورفـع بهـا أقوامـا إلـى الدرجات العالية، كما خفـض بهـا أقوامـا إلـى المنـازل الهاويـة، وكفر بها عن آخرين أعمالهم الخاطئة، وحدث من أنـواع البلـوى ما جعلها قيامة مختصرة من القيامة الكبرى.

فإن الناس تفرقوا فيها ما بين شقي وسعيـد، كما يتفرقـون كذلك في اليوم الموعـود، وفــر الرجـل فيهـا مـن أخيــه وأمــه وأبيـه، وإذ كان لك امـرئ منهم شأن يغنيه. وكــان مـن النـاس من أقصـى همته النجـاة بنفسه؛

لا يلوى على ماله ولا ولده ولا عرضه، كما أن منهم من فيه قـوة على تخليص الأهل والمال، وآخر فيه زيادة معونة لمـن هـو منـه ببال. وآخر منزلته منزلة الشفيع المطاع. وهم درجات عند اللــه في المنفعة الدفاع. ولم تنفع المنفعة الخالصة مـن الشـكوى إلا الإيمان والعمل الصالح والـبر والتقـوى. وبليـت فيهـا السـرائر. وظهرت الخبايا التي كانت تكنها الضمائر. وتبين أن البهـرج مـن

الأقوال والأعمال بخون صاحبه أحوج ما كان إليه من المآل. و ذم سادته وكبراءه من أطاعهم فأضلوه السبيلا.

كما حمد ربه من صدق ما جاءت به الآثار النبوية من الأخبار بما يكون، وواطأتها قلوب الذين هم في هذه الأمة محدثون، كما تواطأت عليه المبشرات التي أريها المؤمنون. وتبين فيها الطائفة المنصورة الظاهرة على الدين، الذين لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم إلى يوم القيامة؛ حيث تحزبت الناس ثلاثة أحزاب: حزب مجتهد في نصر الدين، وآخر خاذل له، وآخر خارج عن شريعة الإسلام.

وانقسم الناس ما بين مأجور ومعذور، وآخر قد غره بالله الغرور. وكان هذا الإمتحان تمييزا من الله وتقسيما؛ {**لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاء أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا**} [الأحزاب:24][1].

كما كان دقيقا في وصف أحوال المسلمين ومواقفهم حين غزى التتر بلاد الشام فقال: "وهكذا هذا العام[2] جاء العدو من

[1] () انظر الفتاوى 28\328، 327.

[2] () يعني سنة تسع وتسعين وستمائة للهجرة. انظر: الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية 28\410.

نـاحيتي علـو الشـام وهـو شـمال الفـرات وهـو قبلـي الفـرات، فزاغت الأبصـار زيغـا عظيمـا وبلغـت القلـوب الحنـاجر، لعظـم البلاء، لا سيما لما استفاض الخبر بإنصراف العسكر إلـى مصـر، وتقرب العدو وتوجهه إلى دمشق. وظن النـاس بـالله الطنونـا،؛ هذا يظن أنه لا يقف أمامهم أحد من جند الشام حـتى يصـطلموا أهل الشام. وهذا يظن أنهم لو وقفوا لكسروهم كسرة وأحاطوا بهم إحاطة الهالة بالقمر. وهذا يظن أن أرض الشـام مـا بقيـت تسكن، ولا بقيت تكون تحت مملكة الإسـلام. وهـذا يظـن أنهـم يأخذونها، ثم يذهبون إلى مصر فيستولون عليها فلا يقف أمامهم أحد، فيحـدث نفسـه بـالفرار إلـى اليمـن، ونحوهـا. وهـذا – إذا أحسن ظنه – قال: إنهم يملكونها العام، كما ملكوها عام هولاكو سنة سبع وخمسين. ثم قد يخرج العسكر من مصر فيسـتنقذها منهم، كما خرج ذلك العام؛ وهذا ظن خيارهم. وهذا يظن أن من أخبره به أهل الآثار النبويـة؛ وأهـل التحـديث والبشـارات أمـاني كاذبة، وخرافات لاغية. وهذا قد استولى عليـه الرعـب والفـزع، حتى يمر الظن بفؤاده مر السـحاب؛ ليـس لـه عقـل يتفهـم، ولا لسان يتكلم. وهذا قد تعارضت

عنده الأمارات، وتقابلت عنـده الإرادات، لا سـيما وهـو لا يفـرق من المبشرات بين الصادق والكاذب، ولا يميز في التحديث بيـن المخطئ والصائب، ولا يعرف النصوص الأثرية معرفـة العلمـاء، بل إما أن يكون جاهلا بهـا وقـد سـمعها سـماع العـبر، ثـم قـد لا يتفطـن لوجـوه دلالتهـا الخفيـة، ولا يهتـدي لـدفع مـا يتخيـل أنـه معارض لها في بادئ الروية.

فلـذلك اسـتولت الخيـرة علـى مـن كـان متسـما بالإهتـداء، وتراجمت به الآراء تراجم الصـبيان بالحصـباء {**هُنَالِـكَ ابْتُلِـيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا**} [الأحزاب:11] .[1]

أمـا المنافقون فلهم شأن آخر، ولهم موقف لا يختلـف كـثيرا عن مواقف أسلافهم في غزوة الأحـزاب حيـن ابتلـي المؤمنـون وبلغت القلوب الحناجر وظنـوا بـالله الظنونـا[2]. وكـانوا شـيعا؛ فمنهم من قال: ما بقيت الدولة الإسلامية تقوم فينبغي الدخول في دولة التـتر، وقـالت بعـض الخاصـة: مـا بقيـت أرض الشـام تسكن بل ننتقل عنها إما إلـى الحجـاز واليمـن وإمـا إلـى مصـر،

1() الفتاوى 28\446،447.

2() في صفحات عدة قارن ابن تيمية بين حادثة التتر وموقف الناس منها وغـزوة الأحزاب وموقف المؤمنين والمنافقين منها. انظر الفتاوى 28\440،464.

وقال بعضهم: بل المصلحة الإستسلام لهؤلاء كمـا قد استسـلم لهم أهـل العراق والدخـول

تحت حكمهم[1].

هذه الحادثة لهولها وشدتها وكثرة أحداثها وترابطهـا لا يمكـن أن نأتي عليها بجملتها أو نفصل القول في كل حدث من أحداثها – فذلك ميدانه الكتـب المختصصـة- ولكـن البحـث سـيتجه إلـى بيان العوامل الظاهرة أو الخفية في دخول التتر بلاد المسلمين، شاملا في ذلك أصل التتر ومعتقدهم والبواعث الأولى لـدخولهم ونمـاذج للمآسـي الـتي خلفوهـا فـي البلاد المسـلمة، ومركـزا الحـديث أكـثر فـي عوامـل دخلـوهم ((بغـداد)) حاضـرة العـالم الإسلامي والتي انتهت بقتل الخليفة وإسقاط الخلافة العباسية.

ولعل الدارسة تكشف عن أدوار خفية لا تكفـي كتـب التاريـخ المتخصصة وحدها في كشف رموزها وتفصيل مواقف أصحابها، وهذا يعني الإستفادة من كتب السير والتراجم والكتـب المعينـة بالعقائد والأديان أو الفرق والملل والنحل، فتلـك حريـة بكشـف

1() انظر الفتاوى 28\451، 450.

أدوار أصحاب العقائد ولا سيما الرافضة – موضع التركيز في هذه الدارسة -.

* * *

أولا: **أصل التتر وعقيدتهم:**

هذه الأمة ((التترية)) خرجوا من أراضيهم (بادية الصين) وراء بلاد تركستان[1]، وأصولهم تركية، بل هم من أكثر الترك عددا[2].

وأول ملوكهم ((جنكز خان))، وهو سلطانهم الأول، وليس للتتر، ذكر قبله، إنما كانت طوائف المغول بادية بأراضي الصين فقدموه عليهم .. وأول مظهره كان في سنة تسع وتسعين وخمسمائة، هكذا ذكر الذهبي[3].

1() سير أعلام النبلاء 22\225.

2() الكامل لابن الأثير 12\359.

3() سير أعلام النبلاء 22\243 – وذكر في موضع آخر أن أول ظهور التتر كان سنة 606هـ، السير 22\225

أما ابن الأثير فهو وإن لم يذكر التتر إلا في سنة 604هـ، فقد تحدث عن التتر الأولى وملكهم ((كشكي خان))، وأن هؤلاء خرجوا من بلادهم حدود الصين قديما ونزلوا بلاد تركستان، وكان بينهم وبين الخطا عداوة وحروب[1].

وتحدث عن التتر الآخرة وملكهم ((جنكز خان)) النهرجي، وأنهم خرجوا على التتر الأولى فانشغلوا بهم عن غيرهم[2].

ولم يغفل ذلك الذهبي بل نقل في أحداث سنة 606هـ محاربة ملوكهم للخطا، وأن رأسهم يدعى ((كشلوخان)) حتى خرج عليه ((جنكز خان)) فتحاربوا مدة وظفر جنكز خان وانفرد ودانت له قبائل المغول[3].

فهل ذلك نوع من التضارب في منقولات الذهبي، أم أنه أراد بخروجهم على يد جنكيز خان أنه بداية سماع المسلمين بهم، أو قصد أنه أول ملوك التتر الأقوياء الذين كان لهم أثر في تاريخهم وتنظيم حياتهم، لا سيما وقد ذكر الذهبي أن ((جنكيز

1() انظر: الكامل 12\269، 270، 271، وسيأتي تفصيل شيء من ذلك.

2() المصدر السابق 12\271.

3() السير 22\225، 226، 227.

خان)) هو أول من وضع لهم ((ياسة)) – أي شريعة- يتمسـكون بها[1].

قصد التتر العالم من حولهم ووقعت لهم مصافات وحروب، تفوقوا على غيرهم في الغالب منها، وكانوا يُرهبون عدوهم لشدتهم وشجاعتهم وكثرتهم، وقد جود الموفق البغدادي وصفهم – كما قـال الذهبي- حين قال: "حـديثهم حـديث يأكـل الأحـاديث، وخـبر ينسـي التواريخ، ونازلة تطبق الأرض"؛ هذه الأمة لغتها مشوبة بلغة الهند لمجاورتهم، عراض الوجـوه، واسـعو الصـدور، خفـاف الأعجـاز، صـغار الأطـراف، إلـى أن يقـول: وهـذه القبيلـة الخبيثـة تعـرف بالتمرجـي سكان

براري قاطع الصين ومشتاهم بأرغون[2].

أما عن عقيدة التتر وعوائدهم فيقول عنها ابن الأثير: "وأمـا ديـانتهم فـإنهم يسـجدون للشـمس عنـد طلوعهـا، ولا يحرمـون شيئا؛ فإنهم يأكلون جميع الدواب حتى الكلاب والخنازير وغيرها،

1() السير: 22\228.

2() سير أعلام النبلاء 22\227.

ولا يعرفون نكاحا بل المرأة يأتيها غيـر واحـد مـن الرجـال، فـإذا جاء الولد لا يعرف أباه"[1].

ويرى ابن تيمية أن التتر خارجون عن الإسلام بمنزلـة مـانعي الزكاة وبمنزلة الخوارج الذين قاتلهم علي رضي الله عنه[2].

وهو لا ينفي وجود من ينتسـب إلـى الإسـلام مـن عسـكرهم، ويثبت كذلك أن عندهم من الإسلام بعضـه، ويفصـل القـول فـي معتقـدهم وعوائـدهم وقربهـم أو بعـدهم مـن الإسـلام فيقـول: "هؤلاء القوم عسكرهم مشتعمل على قوم كفـار مـن النصـارى والمشركين وعلى قـوم منتسـبين إلـى الإسـلام – وهـو جمهـور العسـكر- ينطقـون بالشـهادتين إذا طلبـت منهـم، ويعظمـون الرسول، وليس فيهم من يصلي إلا قليـل جـدا، وصـوم رمضـان أكثر فيهم من الصلاة، والمسلم عندهم أعظم من

غيره.. وعندهم مـن الإسـلام بعضـه، وهـم متفـاوتون فيـه لكـن الذي عليه عامتهم والذي يقاتلون عليه متضمن لـترك كـثير مـن شرائع الإسلام أو أكثرها؛ فإنهم أولا يوجبون الإسلام ولا يقاتلون

1() الكامل 12\360.

2() الفتاوى 28\503، 504.

من تركه، بل من قاتل على دولة المغول عظمـوه وتركـوه، وإن كـان كـافرا عـدوا للـه ورسـوله، وكـل مـن خـرج علـى دولتهـم استحلوا قتله وإن كان من خيرا المسلمين.. ولا ينهون أحدا مـن عسكرهم أن يعبد مـا شـاء مـن شـمس أو قمـر أو غيـر ذلـك... وعامتهم لا يلتزمون أداء الواجبات لا من الصـلاة ولا مـن الزكـاة ولا من الحج ولا غير ذلك، ولا يلتزمون الحكم بينهـم بحكـم اللـه بــل يحكمــون بأوضــاع لهــم توافــق الإســلام تــارة وتخــالفه أخرى..."[1].

ثانيا: **البواعث الأولى:**

تستلزم الدراسة مقـدمات مهمـة تكشـف البـواعث الاولـى لدخول التتر بلاد المسـلمين، وتوضـح بدايـة احتكـاكهم وطبيعـة علاقتهـم مـع بعـض الـدول المسـتقلة عـن الخلافـة العباسـية – كالدولة الخوارزمية- ومع ملوك الدول الأخرى- كملوك الخطــا- وكيف قادت هذه البدايـة إلـى وصـول بغـداد وإسـقاط الخــلافة العباسية.

1() انظر : الفتاوى 28\504، 505، ولمزيد التفصيل في الموضوع يمكن الرجوع لما كتبه د. سعد الغامدي في كتابه: المغول بيئتهم الطبيعيـة وحيـاتهم الإجتماعيـة والدينية من ص 121 – 158.

1- بين الخوارزميين وملوك الخطا:

وتبدأ أحداث الخوارزم شاه مع الخطا منذ أن حاربهم أرسلان ابن أتسز بن محمد بن نوشتكن، وتوفي سنة 568هـ[1].

ثم تلاه ابنه علاء الدين تكش بن أتسز الذي تملك بخارى وأخذها من صاحب الخطا بعد حروب عظيمة، ثم توفي سنة 596هـ[2].

كما نقل عنه الذهبي أنه تملك الدنيا من السند والهند وما وراء النهر إلى خراسان، وهو الذي أزال دولة السلاجقة [3].
ثم جاء بعده ابنه محمد الذي قصد الخطا سنة أربع وستمائة في جيش عظيم فالتقوا وتمت بينهم مصافات، ثم وقعت الهزيمة على المسلمين وقتل خلق وأسر السلطان محمد وأمير من أمرائه، ولم يخرج من الأسر إلا بحيلة وعاد إلى خوارزم[4].

1() سير أعلام النبلاء: 20\323.
2() المصدر السابق: 22\218، 219.
3() المصدر السابق: 21\331.
4() المصدر السابق: 22\ 224.

وفـي سنــة 606هــ عـبر خـوارزم شــاه (محمــد) جيحـون بجيوشه فالتقـاه طاغيــة الخطـا (طاينكــو) فانهــزمت الخطــا وأسر ملكهم وهزموا

هزيمة منكرة، وقتل منهم وأسـر خلـق لا يحصـى، وعلـى أثرهـا تملـك (خـوارزم شـاه) بلاد مـا وراء النهـر مدينـة مدينـة ناحيـة ناحية[1].

أما ملوك الخطا هؤلاء فهم قوم كفار، وقد طالت أيامهم فـي بلاد تركستان وما وراء النهـر وثقلـت وطـأتهم علـى أهلهـا حـتى ضاق المسلمون ذرعـا بهـم وكتـب سـلطان سـمرقند وبخـارى- وكان كما ذكر ابن الأثير: عريـق النسـب فـي الإسـلام والملـك- يقول الخوارزم شـاه: إن اللـه عـز وجـل قـد أوجـب عليـك بمـا أعطاك من سـعة الملـك وكـثرة الجنـود أن تسـتنقذ المسـلمين وبلادهـم مـن أيـدي الكفـار، وتخلصـهم ممـا يجـري عليهـم مـن التحكم في الأموال والأبشار، ونحـن نتفـق معـك علـى محاربـة الخطا، ونحمل إليك ما نحمله إليهم، ونذكر اسمك في الخطبــة والسكة. فأجابه محمد بن خوارزم شاه وعبر إليـه نهـر جيحـون ووقعت المعركة كما سبق[2].

1() الكامل لابن الأثير 12\ 267.

2() الكامل 12\259.

2- بين ملوك الخطا والتتر:

استفاد التتر من كسر الخوارزميين لملوك الخطا وتقووا بكسر خوارزم شاه لهم، ووقعت بينهم حروب، وكان رأس التتر حينها يدعى ((كشلوخان)) فكتب ملك الخطا إلى خوارزم شاه يخوفه بالخطر

الجديد ويطلب إليه أن يتعاون معه في كسر التتر ويقول: "ما جرى بيننا مغفور؛ فقد أتانا عدو صعب فإن نصر علينا فلا دافع لهم عنك والمصلحة أن تنجدنا". فكتب إليه ((خورزم شاه)) ما يفيد بموافقته، وأنه قادم لنصرته، وكتب لـ((كشلوخان)) التتري رسالة أخرى قال فيها: إنني قادم وأنا معك على الخطا – قال الذهبي: وكان بئس الرأي[1] - فالتقى الجمعان ونزل خوارزم شاه بإزائهما يوهم كلا من الفريقين أنه معه وأنه كمين له، فوقعت الكسرة على الخطا، فمال خوارزم شاه حينئذ معينا لكشلوخان، واستمر القتل بالخطا، وانضم منهم خلق إلى خوارزم شاه، وخضع له كشلوخان وقال: نتقاسم مملكة الخطا، فقال خوارزم شاه بل البلاد لي وسار لحربه، ثم تبين له قوة

1() انظر: سير أعلام النبلاء 22\225، 226، وقال ابن كثير: ولم يكن ما فعله خوارزم شاه فعلا جيدا. البداية والنهاية 13\80.

التتار فأخذ يراوغهم، فبعث إليه كشلوخان يقـول: مـا هـذا فعـل ملك؛ ذا فعل اللصوص، فإن كنت ملكاً فاعمل مصافاً بيننا فإمـا أن تهزمني وتملك البلاد التي بيدي، وإما أن أفعـل أنـا بـك ذلـك، فلم يجبه خوارزم شاه إلى ما طلب[1].

3- بين الخوارزميين والتتار:

خــرج علـى ملـك التتــر الأول ((كشلوخــان)) تتــر آخـرون بزعامـة
((جنكز خان)) النهرجي، فانشغل بهم كشلي خان وتحاربوا مدة وظفر ((جنكز خان)) وطغـى وتمـرد وأبـاد البلاد والعبـاد، وأخـذ أقاليم الخطا، ودانت له قبائل المغول بعد أن ظفـر جنكـز خـان بابن كشلوخان ولم يكن له معه كبير أمر[2].

أما أول مصاف كان بين خوارزم شاه وجنكز خـان فقـد كـان بقيادة ابن جنكز خان (دوشي خان) سنة 606هـ (هكـذا سـاقها الذهبي ضـمن أحـداث هـذه السـنة وإن لـم يصـرح بـه)، وعلـى

1() انظر: الكامل لابن الأثير: 12\270، 271.

2() الكامل 12\271، سير أعلام النبلاء 22\226، 228.

الرغم من انتصار خـوارزم شـاه فـي هـذه المعركـة إلا أنـه عـاد مهموما قلقا لما رآه من قوة هذا العدو وكثرتهم وشجاعتهم[1].

ولذلك خطـر ببـال خـوارزم شـاه أن يكتشـف التتـار بنفسـه فدخل فيهم هو وثلاثة معهم متسترين بزي التتر، فقبـض عليهـم وقتل اثنان منهم وفر خوارزم وآخر معه في الليـل، وذلـك سـنة 615هـ[2].

أ_ دور الخـــوارزميين فـــي دخـــول التـــتر بلاد المسلمين:

قـويت شـوكة خـوارزم شـاه وتملـك سـنة 611هــ كرمـان ومكـران والسـند وخطـب لـه بهرمـز وهلـوات، وكـان يصـيف بسمرقند، وإذا قصد بلدا سبق خبره.

وفي العـام الـذي يليـه تـوثب خـوارزم شـاه علـى ((غزنـه)) فتملكهـا، وهـزم صـاحب الـروم كيكـاوس الفرنـج وأخـذ منهـم ((أنطاكية)).

1() سير أعلام النبلاء: 22\228.

2() المصدر السابق نفسه 22\229.

ثم قصد بغداد واستعد له ((الناصر)) ولكـن اللـه صـرفه عـن بغداد[1].

أما الحادثة المهمة في هذا السـياق والـتي كـانت بدايـة غـزو التتار فهي حيـن أحـس جنكـز خـان بقـوة خـوارزم شـاه وسـعة ملكه، وبعث إليه رسولا يطلب الهدنة معه لإعمار البلاد وإصــلاح الإقتصاد ويقول: إنه ما يخفى عليّ عظم سلطانك، وأنـت كـأعز أولادي، وأنـا بيـدي ممالـك الصـين فاعقـد بيننـا المـودة، وتـأذن للتجار وتنعمر البلاد، فأجاب خوارزم شاه إلـى الصـلح – بعـد أن عرف من الرسول سعة ملك جنكز خـان – فـأعجب ذلـك جنكـز خان ومشى الحال[2].

لكـن هـل اسـتمرت الهدنـة ؟ وكيـف نقضـت؟ ومـا أثـر هـذا النقـض فـي دخـول التـتر بلاد المسـلمين؟ هـذه أسـئلة مهمـة؛ والإجابـة عليهـا تكشـف لـك البـواعث الأولـى لمجيـء جحافـل المغول ودخول التتر بلاد المسلمين.

1() سير أعلام النبلاء: 22\229 – 231.

2() المصدر السابق: 22\233.

ذكـر ابن الأثيـر – وهو من أقرب المصـادر لهذه الفتــرة [1] – أن

جنكز خان سير جماعة من التجار والأتراك ومعه شيء كثير مـن النقرة والقندر وغيرهما إلى بلاد ما وراء النهر: سمرقند وبخارى ليشتروا له ثيابـا للكسـوة، فوصـلوا إلـى مدينـة مـن بلاد الـترك تسمى ((أوترار)) وهي آخر ولاية خوارزم شاه، وكان له نائب[2] هناك فلما ورد عليه هذه الطائفة من التتر أرسل إلـى خـوارزم شاه يعلمه بوصولهم ويذكر له ما معهم من الأموال، فبعث إليــه خوارزم شاه يأمره بقتلهم وأخذ ما معهـم مـن الأمـوال وإنفـاذه إليه، فقتلهم، وسير ما معهم وكان شيئا كثيرا، فلمـا وصـل إلـى خوارزم شاه فرّقه على تجار بخارى وسمرقند وأخذ ثمنه منهم، فلمـا قتـل نـائب خـوارزم شـاه أصـحاب جنكـز خـان أرسـل جواسيس إلى جنكز خان لينظر ما هو؟ وكم مقدار ما معه مــن الترك؟ وما يريد أن يعمل؟

1() وقد امتدح ابن كثير عرضه لأحداث التـتر وحسـنه: البدايـة والنهايـة 13\83، 84.

2() هو خال خوارزم شاه كما ذكر الذهبي في سير أعلام النبلاء 22\233.

فمضى الجواسيس، وسلكوا المفـازة والجبـال حـتى وصـلوا إليه، فعـادوا بعـد مـدة طويلـة وأخـبروه بكـثرة عـددهم، وأنهـم يخرجون عن الإحصاء، وأنهم من أصبر خلق الله علـى القتـال لا يعرفون هزيمة، وأنهـم يعملـون مـا يحتـاجون إليـه مـن السـلاح بأيديهم[1].

ب- ندم خوارزم شاه ومشورته:

وعلى الرغم من تجلد خوارزم شاه وفعلته فقد ندم علـى مـا صنع، وأصـابه هـمٌّ وغـمٌّ وتحفـز استشـار لأجلـه مـن حـوله مـن العلماء والأمراء.

فقد أحضر الشهاب الخيوفـي – وهو فقيه فاضل كبير المحل عنده، لا يخالف ما يشير به – فحضر عنده فقال لـه: قـد حـدث

1() الكامل 12\361، 362، وسير أعلام النبلاء 22\233 مع اختلاف عنـده فـي قتل الرسل إذ يذكر أن خال خوارزم ومتولي ما وراء النهر شرهت نفسه إلى أخــذ أموال هؤلاء التجار والقبض عليهم

وهو يظن أنهم جواسيس للتتار، وأن رسول جنكز خان جاء إلى خوارزم شاه وقال له: إنك أمنت تجارنا والغدر قبيح، فإن قلت فعلـه خـالى فسـلمه إلينـا وإلا سـترى مني ما تعرفني به، فحارث نفس خوارزم شاه وتجلد وأمر بقتل الرسل، فيا بئــس ما صنع – كذا قال الذهبي في السير 22\233.

أمـر عظيم ولا بد من الفكر فيـه وأخـذ رأيـك فـي الـذي نفعلـه؛ وذاك أنه قد تحـرك إلينـا خصـم مـن ناحيـة التــرك فـي كـثرة لا تحصـى، فقـال لـه: فـي عسـاكرك كثــرة وتكـاتب الأطـراف، وتجمع العساكر، ويكون النفير عاما، فإنه يجب على المســلمين كافة مساعدتـك بالمال والنفس، ثم نذهب بجميع العساكر إلــى جانب "سيحـون" – وهو نهـر كـبير يفصـل بيـن بلاد الـترك وبلاد الإسلام – فنكون هناك فإذا جاء العدو وقد سـار مسـافة بعيــدة لقيناه ونحـن مسـتريحون وهــو وعسـاكره قـد مسـهم النصـب والتعب.

وجمع خـوارزم شاه أمراءه ومن عنده من أربـاب المشورة فاستشـارهم فلـم يوافقــوه علـى رأيـه، بـل قـالوا: الـرأي أن تتركهم يعبرون "سيحـون"

إلينا، ويسلكون هذه الجبال والمضايق، فإنهم جاهلون بطرقهم، ونحن عارفون بها؛ فنقوى حينئذ عليهم ونهلكهـم فلا ينجـو منهـم أحد([1]).

ثالثا: **غزو التتـر ومآسيهم في بلاد المسلمين:**

---

[1]() الكامل لإبن الأثير 2\362، 363.

وقطعــت جهيــزة قــول كــل خطيــب، وبينمــا الســلطان الخـوارزمي ومـن حـوله يتشـاورون بشـأن التـتر إذ ورد رسـول جنكز خان ومعه جماعة يتهـدد خـوارزم شـاه ويقـول: "تقتلـون أصحابي وتجاري وتأخذون مالي منهـم، اسـتعدوا للحـرب فـإني واصل إليكم بجمع لا قبل لكم به".

فلما سمع خوارزم شاه الرسالة أمر بالرسـول فقتـل، وأمـر بحلق لحى الجماعة الـذين كـانوا معـه، وأعـادهم إلـى صـاحبهم جنكز خان يخبرونه بما فعل بالرسول ويقولون لـه: إن خـوارزم شاه يقول لك: أنا سائر إليك ولو أنك في آخر الدنيا حـتى أنتقـم وأفعل بك كما فعلت بأصحابك.

وبالفعـل تجهـز خـوارزم شـاه، وسـار بعـد الرسـول مبـادرا ليكسبهم وسار أربعة أشهر حتى وصل إلى بيوتهم فلم يجد فيهـا إلا النساء والصبيان والأثقـال فـأوقع بهـم وغنـم الجميـع وسـبى النساء والذرية.

وكـان غيبة التتـر الكفار عـن بيوتهم أنهم ساروا إلى محاربـة ملك من ملوك التـرك يقـال له كشلوخـان، فقاتلـوه وهزمـوه – كـما سبـق

البيـان – فلقيهـم فـي الطريـق خـبر خـوارزم شـاه ومـا صـنع بمخلفيهم، فجـدوا السـير فـأدركوه قبـل أن يخـرج عـن بيـوتهم فتصافوا واقتتلوا قتالا عظيما لم يسمع بمثله، مـدته ثلاثـة أيـام، وأحصي من قتل من المسلمين في هذه الوقعة فكانوا عشـرين ألفا، وأما من الكفار فلا يحصى من قتـل منهـم، وجـرت الـدماء غزيرة على الأرض حتى كانت الخيل تزلق فيه من كثرته[1].

1- مأساة التتـر في بخارى المسلمة:

عاد المسلمون بعد هذه المنازلـة إلـى بخـارى وطلـب إليهـم خوارزم شاه التحصن بها وحمايتها ريثمـا يعـد العـدة للتتــر مـن خوارزم وخرسان، ولكن هؤلاء التتـر عاجلوا المسلمين بـالتوجه إلى بخارى وحين وصلوها حاصـروها واقتتلـوا مـع حاميتهـا قتـالا شديدا على مدى ثلاثة أيام فر علـى أثرهـا العسـكر الخـوارزمي إلى خراسان حين أحسوا أنه لا طاقة لهم بهؤلاء التتــر. واشـتد الأمــر علــى أهــل بخــارى حيــن أصــبحوا وقــد تــرك العســكر الخوارزميـون مواقعهم فارين إلى خراسـان، ولم يكن أمام أهل البلد إلا أن يطلبوا الأمان، فأعطوا الأمان بواسطة أحـد القضـاة (بدر الدين قاضي خان). وعلى إثـر ذلك فتحت أبـواب المدينـة في الرابع من ذي الحجة عام ست عشـرة وستمائة،

1() الكامل 12\363، 364.

فـدخل التتــر الكفـار بخـارى المسـلمة وأظهـروا لأهلهـا العـدل حسن السيرة، ثم توجه ((جنكز خان)) إلى القلعة الـتي احتمـى بها طائفة من العسكر كانوا نحوا من أربعمائة فارس لم يتمكنوا مـن الهـرب مـع أصـحابهم، وطلـب جنكـز خـان مـن أهـل البلـد الخروج معه لمحاصرة هذه القلعة ومن تخلف قتـل، فكانت تلك بداية الإستخفاف والإستذلال لأهل بخـارى، فخرجـوا خوفـا مـن بطشه، وأمرهم بردم الخندق المحيط بالقلعـة ففعلوا وبلغ مــن سوء التتـر واستهتارهم أن اسـتخدموا كـل شـيء فـي ردم هـذا الخندق حتى ألقيت المنابـر وريعات القرآن في الخنـدق.

وبعد جهـد جهيـد وقتـال مريـر، دخـل جنكـز خـان وأصـحابه القلعة وقتلوا من بقي بها من جند المسلمين الذين أصروا علـى الدفاع عن القلعة بكل ما يملكون وحتى آخر لحظة !

وقل توقفت مأسـاة التتــر ببخــارى عنـد هـذا الحــد ؟ كلا، فحين فرغوا من القلعـة طلـب جنكـز خـان أن يُكتـب لـه وجـوه القوم ورؤساؤهم، فلما عُرضوا عليه أمر بإحضـارهم فحضــروا، وطلب منهم إحضار ((النقـرة)) التي باعهم إياها خـوارزم شــاه وقد أخذت من تجار التتـر – كمـا سبق البيـان – فأحضر كل مــن كـان عنـده شـيء منهـا بيـن يـدي ((جنكــز خـان)) ثـم أمرهـم

بالخروج من البلـد فخرجوا مجردين من أموالهم ليـس مـع أحـد منهم غير ثيابه التي عليه، ودخل الكفـار البلـد فنهبوه وقتلوا من وجدوا فيه، وأحاطـوا بالمسلمين فاقتسمـوهم ونسائهـم، وكـان يومـا شديـدا على
المسلمين حتى قال ابن الأثيـر: وكـان يومـا عظيمـا مـن كـثرة البكـاء من الرجال والنسـاء والولـدان ... وتفــرق المسلمــون قددا وتمزقوا كل ممزق، وأصبحت بخارى خاوية علـى عروشـها كـأن لـم تغـن بـالأمس، وارتكبـوا مـن النسـاء العظيـم والنـاس ينظرون ولا يقدرون على فعل شيء، ورضـي بعـض المسـلمين بالموت دون ذلك فقاتلوا حتى قتلوا؛ ومن هـؤلاء الفقيـه الإمـام ((ركن الدين إمام زاده)) وولده، وكذلك فعـل القاضـي ((صـدر الدين خان))، ومن استسلم أخذ أسيرا. ولم يرحـل التتــر عـن بخارى حتى ألقـوا النار في البلد والمدارس والمساجـد وعــذبوا النـاس بـأنواع العـذاب فـي طلـب المـال - فإنـا للـه وإنـا إليـه راجعـون[1].

2- مأساة التتـر في سمرقنـد:

ولم تقف المأسـاة عند حدود بخارى، بـل رحـل هـؤلاء التتــر الرعـاع إلى سمرقنــد يستصـحبون معهـم مـن سـلم مـن أهـل

---

[1] () انظر: الكامل لإبن لأثير 12\365-367.

بخارى أسارى ويسوقونهم مشاة على أقبح صورة وكأنهم قطيع من الغنم، فكل من أعيا وعجز عن المشي قتلوه.

فلما قاربوا سمرقند قدموا الخيالة وتركوا الرجالة والأسارى والأثقال وراءهم حتى تقدموا شيئا فشيئا ليكون أرعب لقلوب المسلمين فلما رأى أهل البلد سوادهم استعظموه فلما كان اليوم

الثاني وصل الأسارى والرجالة والأثقال ومع كل عشرة من الأسارى علم، فظن أهل البلد أن الجميع عساكر مقاتلة. وأحاطوا بالبلد وفيه خمسون ألف مقاتل من الخوارزمية، وأما عامة البلد فلا يحصون كثرة فخرج إليهم شجعان أهله وأهل الجلد والقوة رجالة، ولم يخرج معهم من العسكر الخوارزمي أحد لما في قلوبهم من خوف هؤلاء الملاعين، فقاتلهم الرجالة بظاهر البلد فلم يزل التتر يتأخرون وأهل البلد يتبعونهم ويطمعون فيهم، وكان الكفار التتر قد كمنوا لهم كمينا، فلما جاوزوا الكمين خرج عليهم وحال بينهم وبين البلد، ورجع الباقون الذين أنشبوا القتال أولا فبقوا في الوسط وأخذهم السيف من كل جانب فلم يسلم منهم أحد؛ قتلوا عن آخرهم

شهداء رضي الله عنهم وكـانوا سـبعين ألفـا علـى مـا نقـل ابـن الأثير[1].

فلما رأى الباقون من الجند والعامة – في سمرقنــد - ذلـك ضعفت نفوسهم وأيقنوا بالهلاك فقال الجنـد – وكـانوا أتــراكا -: نحن من جنس هؤلاء ولا يقتلوننا، فطلبـوا الأمـان فأجيبــوا إلـى ذلك ففتحوا أبواب البلـد ولم يقدر العامة على منعهـم، وخرجـوا إلى الكفـار بأهلهم وأموالهم، فقـال لهـم الكفــار: ادفعـوا إلينـا سلاحكم وأموالكم ودوابكم ونحن نسيركم إلى مأمنكم، ففعلـوا ذلـك، فلمـا أخـذوا أسـلحتهم ودوابهـم وضعــوا السيــف فيهـم وقتلوهم عن آخـرهم،

وأخذوا أموالهم ودوابهـم ونسائهم.

ثـم نـادوا – فـي اليـوم الرابـع – فـي البلـد أن يخـرج أهلـه جميعهم ومن تأخر قتلوه فخرج جميع الرجال والنساء والصبيان ففعلوا معهم مثل ما فعلوا مع أهـل بخـارى مـن النهـب والقتـل والسبي والفسـاد، وأحرقـوا الجـامع، وافتضـوا الأبكـار، وعـذبوا الناس بأنواع العـذاب فـي طلـب المـال، وقتلـوا مـن لـم يصـلح

---

[1] () الكامل 12\367، 368.

للسبي، وكان ذلك في المحرم سنة سبع عشرة وستمائة للهجرة فلا حول ولا قوة إلا بالله[1].

3- مآسي وأحداث أخر:

ولم تكن فاجعة التتار لتنتهي عند حدود هاتين المدينتين من مدن العالم الإسلامي رغم ما فيهما من مآسي وأحزان تكفي الواحدة منهما لتكون ملحمة ترويها الأجيال، ويتعب في سبيل تدوين أحداثها المؤرخون والكتاب، لكن الفاجعة سرت في الأقطار الإسلامية سريان النار في الهشيم، فإثر أحداث سمرقند سيّر ((جنكز خان)) مجموعة من جنده يقال لهم ((المغربة)) لأنهم ساروا إلى ((غرب خرسان)) في طلب ((خوارزم شاه)) وقال لهم: ((اطلبوا خوارزم شاه أين كان ولو تعلق بالسماء حتى تدركوه وتأخذوه)).

وسار هؤلاء يقطعون الفيافي والقفاز ويحتالون على عبور المياه

والأنهار، وحين اعترضتهم المياه الخمسة في ((ينج آب)) ولم يجدوا سفينة يعبرون عليها عمدوا إلى عمل أحواض من

---

[1] () الكامل: 12\368.

الخشب وألبسوها جلود البقـر لئلا يـدخلها المـاء، ووضـعوا فيهـا سلاحهم وأمتعتهم وألقوا الخيل في الماء وأمسكوا أذنابها، وتلك الحيـاض مـن الخشـب مشـدودة إليهـم، فكـان الفـرس يجـذب الرجل، والرجـل يجـذب الحـوض المملـوء مـن السـلاح وغيـره، فعبروا كلهم دفعة واحدة، فلم يشعر خوارزم شاه إلا وقد صاروا معه على أرض واحدة(1).

ومع أن المسلمين قـد ملئـوا رعبـا مـن هـؤلاء إلا أنهـم كـانوا يتماسكون بسبب أن نهر ((جيحون)) يحجز بينهـم، فلمـا عـبروه إليهم لم يقدروا على الثبات، وواصل التتـر مسيرهم وفسادهم؛ يرحلون من بلد إلى آخر وقل أن تسلم بلدة من شرهم، وعـاثوا فسادا في نيسابور، وما زنـدران، والـري وهمـذان، وأذربيجـان، وإربل وغيرها من بلاد المسلمين.

وكان للتتـر عوائد سيئة وجبارة، وحيل ماكرة وخبيثـة؛ فمـن عوائدهم أنهم إذا قصدوا مدينـة ورأوا مناعتهـا عـدلوا عنهـا إلـى غيرها، ومنها أنهم إذا قاتلوا مدينة قدموا من معهم مـن أسـارى المسلمين بيـن أيـديهم يزحفـون ويقـاتلون فـإن عـادوا قتلـوهم فكانوا يقاتلون كرها(2).

1() الكامل 12\369.

2() الكامل 12\377.

وكانوا يتقون بهؤلاء الأسارى من الرمي وغيره، ومـن سـلم منهم قتلوه بعد انقضاء الحرب[1].

وأسوأ من ذلك أنهم يستخدمون الأسارى أداة في استخراج المختفيـن مـن بطشـهم، فكـانوا يقولـون للأسـرى نـادوا فـي الدروب أن التتـر قد رحلوا، فإذا نـادى أولئـك خـرج مـن اختفـى فيؤخذ ويقتل[2].

وهل أسوأ من هذا وأذل ؟ وقد تركت هذه الأحداث المؤلمة أثرها وخلفت حالة من الرعب والهلع عمّ الناس كلهـم – إلا مـن رحـم اللـه -، وأصـيبوا بالضـعف والمسـكنة والمذلـة والهـوان، ويكفـي شـاهدا علـى ذلـك مـا سـطره المؤرخـون المعاصـرون للحدث وغيرهم؛ فقـد نقـل ابـن الأثيـر رحمـه اللـه أن رجلا مـن التتـر دخل دربا فيه مائة رجل، فما زال يقتلهم واحدا واحدا حتى أفناهم ولم يمد أحد يده إليه بسوء[3]. وأن آخر مـن التتــر أخـذ رجلا ولم يكن مع التتري ما يقتله به فقال له: ضـع رأسـك علـى

1() البداية والنهاية 13\87.

2() المصدر السابق 12\378.

3() الكامل 12\378، 500.

الأرض ولا تـبرح، فوضـع رأسـه علـى الأرض حـتى جـاء التـتري بسيف وقتله به[1].

قال ابن الأثير: بلغني أن امرأة من التتـر دخلت دارا وقتلت جماعة من أهلها وهـم يظنونهـا رجلا فوضـعت السـلاح وإذا هـي امرأة فقتلها رجل أخذته أسيرا[2].

وقال: وحكى لي رجل قال: كنت أنا ومعي سبعة عشر رجلا في طريق، فجاءنا فارس من التتـر، وقال لنا: حتى يكتف بعضنا بعضا فشرع أصحابي يفعلون ما أمرهم فقلـت لهـم: هـذا واحـد فلم لا نقتله ونهرب ؟ فقالوا: نخاف، فقلت: هـذا يريـد قتلكـم الساعة فنحن نقتله فلعل الله يخلصنا، فوالله مـا جسـر أحـد أن يفعل فأخذت سكينا وقتلته وهربنا فنجونـا. هـذه حكايـة يرويهـا ابن الأثير عن شاهد عيان، ثم يعلـق عليهـا بقـوله: وأمثـال هـذا كثير[3].

1() المصدر السابق 12\501.

2() الكامل 12\378.

3() المصدر السابق نفسه 12\501.

وقال أيضا: ووصل الخبر إلينا ونحن بالموصل أن التتـر ارتحلـوا من مدينة ((مراغة)) خوفا من السيف[1].

أما أهل إربل فضاقوا بذلك ذرعا وقالوا هذا يوم عصيب[2].

وما بالهم لا يخافون، ولم لا يكون الفـزع بشكــل عــام مـن هـذه

الأمة المتوحشــة الظالمـة، وقـد أحــصى بعـض المـؤرخين مـا قتلوه فـي يـوم واحـد فـي مدينـة واحـده وهـي ((مــرو)) فبلـغ سبعمائـة ألف إنسـان[3] !!!

رابعا: **أحـداث بغداد وسقـوط الخلافة العباسيـة:**

هذه المآسـي الموجعـة وهـذه الأحـداث المزلزلـة لـم تكـن نهاية المطاف لمصائب التتـر في بلاد المسـلمين؛ فقـد أعقبتهـا الكارثــة الكـبرى والفتنـة العظمـى بوصـول التتــر إلـى بغـداد وسقوطها في أيديهم وقتل الخليفة العباسـي. وانتهـاء الخلافـة

1() المصدر السابق نفسه 12\378.

2() البداية والنهاية 13\86.

3() البداية والنهاية: 13\87.

الإسـلامية لبنـي العبـاس ويحيـط الأسـى بالقـارئ وهـو يطـالع أحداث هذه السنة، ويكاد الألم يقطـع قلـب الكـاتب وهـو يـدون أحداث هذه الفترة بآلامها وكوارثها وآثارهـا ونتائجهـا. وأسـوق نموذجا لوصف الكارثة:

قال ابن كثيـر: ((ومالوا على البلد فقتلوا جميع مـن قـدروا عليـه مـن الرجـال والنسـاء والولـدان والمشايـخ والكهـول والشبـان، ودخل كثيـر من الناس في الآبار وأمـاكن الحشـوش، وقني الوسخ، وكمنوا كذلك أياما لا يظهـرون. وكـان الجماعـة من النـاس يجتمعـون إلـى الخانـات ويغلقـون عليهـم الأبـواب فتفتحها التتـار إمـا بالكسـر وإمـا بالنـار، ثـم يدخلـون عليهـم فيهربـون منهـم إلـى أعالـي الأمكنـة فيقتلـونهم بالأسطحـة، حتـى

تجري الميازيب من الدماء في الأزقة، فإنا لله وإنا إليه راجعون. وكذلك في المساجد والجوامع والربط، ولم ينج منهم أحد سوى أهل الذمة من اليهود والنصارى ومن التجأ إليهم إلى دار الـوزير ابن العلقمي الرافضـي، وطائفـة مـن التجـار أخـذوا لهـم أمانـا، بذلوا عليه أموالا جزيلة حتى سلموا وسلمت أمـوالهم. وعـادت

بغداد بعد ما كانت أنس المدن كلهـا كأنهـا خـراب ليـس فيهـا إلا القليل من الناس، وهم في خوف وجوع وذلة وقلة.

وقد اختلف الناس في كمية من قتـل ببغداد من المسـلمين في هذه الوقعة؛ فقيل ثمانمائة ألف، وقيل ألف ألف وثمانمائـة ألف، وقيل بلغت القتلـى ألفـي الـف نفـس، فإنـا للـه وإنـا إليـه راجعـون، ولا حـول ولا قـوة إلا بـالله العلـي العظيـم. وكـان دخلوهم إلى بغداد في أواخر المحـرم، ومـا زال السـيف يقتـل أهلها أربعين يوما، وكان قتـل الخليفـة المستعصـهم بـالله أميـر المؤمنين يوم الأربعاء رابع عشر صفر وعفي قبره، وكان عمـره يومئذ سـتا وأربعيـن سـنة وأربعـة أشـهر، ومـدة خلافتـه خمـس عشرة سنة وثمانية أشـهر وأيـام، وقتـل معـه ولـده الأكبـر أبـو العبـاس أحمـد وله خمـس وعشرون سنة ثم قتل ولده الأوسط أبو الفضل عبد الرحمن وله ثلاث وعشرون سـنة، وأسـر ولـده الأصغر مبارك، وأسرت أخواته الثلاث فاطمـة وخديجـة ومريـم، وأسـر من دار الخلافة من الأبكار ما يقارب ألف بكر فيما قيـل - والله أعلم – فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وقتـل أسـتاذ دار الخلافـة الشـيخ محيـي الـدين يوسـف بـن الشيخ أبي الفرج ابن الجوزي، وكان عـدو الـوزير، وقتـل أولاده

الثلاثة: عبد الله وعبد الرحمـن، وعبـد الكريـم، وأكابــر الدولـة واحدا بعـد واحـد، منهـم الـديودار الصـغير مجاهـد الـدين أيبـك، وشهاب الدين سليمان شاه وجماعـة مـن أمـراء السـنة وأكـابر البلد. وكان الرجل يستدعي به من دار الخلافة من بني العباس فيخـرج بـأولاده ونسـائه فيـذهب بـه إلـى مقـبرة الخلال، تجـاه ((المنظـرة)) فيذبح كما تذبـح الشـاة، ويؤسـر من يختارون من بناته وجواريه. وقتل شيخ الشيوخ مؤدب الخليفـة صـدر الـدين علي بن النيار، وقتل الخطباء والأئمة، وحملة القـرآن، وتعطلـت المساجـد والجماعات والجمعـات شهور ببغداد.

ولما انقضى الأمـر المقـدر وانقضـت الأربعـون يومـا بقيـت بغداد خاوية على عروشها ليس بهـا أحـد إلا الشـاذ مـن النـاس، والقتلى في الطرقات كأنها التلـول، وقـد سـقط عليهـم المطـر فتغيرت صورهم، وأنتنت من جيفهم البلد، وتغير الهواء، فحصـل بسببه الوبـاء الشـديد حـتى تعـدى وسـرى فـي الهـواء إلـى بلاد الشام، فمات خلق كثير من تغيـر الجـو وفسـاد الريـح، فـاجتمع على الناس الغلاء والوباء والفناء والطعـن والطـاعون، فإنـا لل ه وإنا إليه راجعون.

ولمـا نودي ببغداد بالأمـان خرج مـن تحـت الأرض مـن كـان بالمطـامير والقنـي والمقـابر كـأنهم الموتــى إذا نبشــوا مــن قبورهم، وقد أنكـر بعضهم
بعضـا، فلا يعــرف الوالـد ولـده ولا الأخ أخــاه، وأخـذهم الوبــاء الشديد فتفانوا وتلاحقوا بمن سبقهم من القتلى، واجتمعوا تحت الـثرى بأمــر الـذي يعلـم السـر وأخفـى، اللـه لا إلـه إلا هـو لـه الأسماء الحسنـى))[1].

خامسا: **أسباب المحنة وعوامل الإنتشـار:**

يسـتطيع المتأمــل فـي محنـة التتــر أن يرصـد عـددا مـن الأسباب ساهمت في دخول التتـر بلاد المسلمين، وأعانت علـى سرعـة انتشارهم ومن هذه الأسبـاب:

1- أسباب قدريـة كونيـة:

ولا شـك أن كل ما يقع في هذا الكـون لا يخـرج عـن تقديــر الله وإرادته الكونية القدريـة يهيء أسبابه ويقدر أحداثه.

ومــن هـذه الأسبــاب الـتي هيأهـا لهـؤلاء التتــر أن زمــن خروجهم اتفـق مع خلـو الأرض من عدد من الملــوك؛ وذلـك أن

1() انظر: البداية والنهاية 13\192، 193.

خوارزم شاه كان قد قتـل الملـوك من سائر الممالـك واستقــر في الأمـر، وكانت جميع البلاد المتاخمـة لبلاد التتــر تحـت أيـدي نوابـه، فلما انهـزم أمامهم في النهاية وهرب من أرضه وتخلــى عن سلطانـه خلت البلاد ولم يبـق لهـا من يحميها فسـاهم ذلـك ولا شك في سرعـة انتشـارهم واستئصـال

شأفة المسلمين من حولهم[1].

والذي يلفت النظـر ويؤكـد أهمية هـذا السـبب أنـه انتشــار مذهل عجب منه المؤرخون، ولم يسـتطيعوا مقـارنته بمـا فعـل ((بخت نصّر)) ببني إسرائيل على الرغم من كثرة قتله وتخريبـه بيت المقدس.

ولم يبلغ ((الإسـكندر المقـدوني)) مبلـغ هـؤلاء القــم علـى الرغم من ملكه الدنيا كلها؛ وذلك أنـه لـم لـم يملكهـا فـي سـنة واحده، إنما ملكها في نحـو عشـرين سـنة، ولـم يقتـل أحـدا بـل رضي من الناس بالطاعة، وهؤلاء التتــر ملكـوا أكـثر المعمـورة في نحو سنة، وأوسعوا النـاس قتلا وإرهابـا – كمـا سـلف – ولـم يتفق لأحد من أهل البلاد التي لم يطرقوهـا بقـاء إلا وهـو خـائف يترقب وصولهم.

1() الكامل 12\361، البداية والنهاية 13\84، 85.

فكيـف إذا أضفنا إلى ذلك طبيعـة هؤلاء التتـر وكثرة عددهم – إذ هـم يخرجون عن الإحصاء – وقوة بأسـهم، وشـده صـبرهم على القتـال؛ فهم لا يعرفون هزيمة، وعدم حاجتهم إلى غيرهم؛ فهـم يعملـون مـا يحتاجـون إليـه مـن السـلاح بأيهـديم، ولا يحتاجـون إلـى ميـرة ومـدد يـأتيهم؛ فمعهـم الأغنـام والبقـر والخيـل وغير ذلك من الـدواب؛ يـأكلون لحومهـا لا غيـر، وأمـا دوابهم التـي يركبـون فإنهـا تحفـر الأرض بحوافـرها
وتأكل عـروق النبـات؛ لا تعرف الشعير؛ فهـم إذا نزلـوا منـزلا لا يحتاجـون إلى شيء من خارج.

2- ضعف همم ملـوك الإسـلام وانحسـار سـلطان الخلافة:

وفي مقابل قوة هؤلاء التتـر وشدة بأسهم واجتماع كلمتهـم فقد ساهم في سرعة انتشارهم وسيطرتهم علـى مـدن العـالم الإسـلامي وحواضـره ضـعف ملـوك الإسـلام فـي تلـك الفتـرة بعامة، وانشغالهم عن الجهاد باللهو واللعب. وهذا المـؤرخ ابـن الأثيـر – يرحمه الله – ينعي على الإسلام وأهلـه، ويصـف أحـوال ملـوكه قبيـل وفـاته بسـنتين فيقـول معلقـا علـى أحـداث سـنة 628هـ ما نصه: ((فالله تعالى ينصر الإسلام والمسلمين نصـرا

من عنده، فما نرى في ملوك الإسلام من له رغبة في الجهاد، ولا في نصرة الدين؛ بل كل منهم مقبل على لهوه ولعبه وظلم رعيته، وهذا أخوف عندي من العدو، وقال الله تعالى (وَاتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً ...)[1] .

وليست أوضاع الخلافة العباسية ولا الخلفاء العباسيين بمعزل عن هذا الوضع المتردي؛ فقد انحسر سلطان الخلافة وانكمشت حدود العباسيين، واستقل غيرهم بالسلطة في حكم أجزاء من العالم الإسلامي، وهو أمر لم يكن سائغا في ظل حكم الدولة الأموية، هذا

فضلا عن اشتغال الخلفاء العباسيين بالشهوات وجمع الأموال في أكثر الأوقات.

هذه الحقائق يجليها لنا ابن كثير عليه رحمة الله في محاولة منه لتلمس أسباب نهاية الدولة العباسية على أيدي التتر فيقول: ((ولم تكن أيدي بني العباس حاكمة على جميع البلاد كما كانت بنو أمية قاهرة لجميع البلاد والأقطار والأمصار، فإنه خرج عن بني العباس بلاد المغرب ... وكذلك أخذت من أيديهم بلاد خراسان وما وراء النهر وتداولتها الملوك دولا بعد

1() الكامل 12\497، 361، والآية 25 من سورة الأنفال.

دول حتى لم يبق مع الخليفة منهم إلا بغداد وبعض بـلاد العـراق، وذلك لضعف خلافتهم واشتغالهم بالشهوات وجمع الأمـوال فـي أكثر الأوقات))[1].

ويقول ((الكتبي)) في وصف آخـر خلفـاء بنـي العبـاس ومـا كان عليه من ضعف الهمة والإشتغال بما لا ينبغي الإشـتغال بـه: ((كان المستعصم متدينا متمسكا بمذهب أهل السنة والجماعــة على ما كان عليه والده وجده، ولم يكن على ما كانوا عليــه مــن التيقظ والهمة، بل كان قليل المعرفـة والتـدبير والـتيقظ، نـازل الهمة محبا للمال، مهملا للأمور يتكل فيها على غيـره))[2].

ويقول ((قطب الدين اليـونيني)) قريبـا مـن ذلـك ويضـيف: ((.. وإنما قـدموه علـى عمـه الخفاجــي لمـا يعلمـون مـن لينـه وانقيـاده وضعف رأيه ليستبـدوا بالأمـور))[3].

وإذا صح ما ينسبه إليه ((ابـن العبــري)) مـن ضـعف الهمـة وزهده بأقطـار الخـلافة عدا بغـداد فهي طامة كبـرى؛ إذ ينسـب

1() البداية والنهاية 13\195.

2() ابن شـاكر الكتبي: فوات الوفيـات 1\496 نقلا عن المغـول في التاريـخ دز الصيـاد ص 252.

3() انظر: الذهبي: سير أعلام النبـلاء 23\175.

إلى ((المستعصم)) قوله: ((أنـا بغـداد تكفينـي ولا يستكثــرونها لي إذا نزلت لهم عن باقـي البـلاد، ولا أيضـا يهجمـون علـيّ وأنـا بها، وهي بيتي دار مقامـي))[1].

وعلى كل حـال فيبـدو أن ضعف ((المستعصـم)) معــروف حتى عند ((التتـر)) ولذا كانوا يسمونـه ((الأَبْلَه))[2].

ولا شــك أن اسـتخفاف وزيــره ((ابــن العلقمــي)) بــه، ومخادعته له وخيانته إيـاه وتصريـف الأمور دونـه سـاهمت فـي إيصال الخليفة والخـلافة إلى ما صـارت إليه[3].

وفــي الوقــت الــذي كــان التتــر فيــه يحاصــرون بغــداد ويحيطـون بدار الخلافـة يرشقونها بالنبـال من كـل جـانب ذكــر أن جاريـة كانـت
تلعب بيـن يـدي الخليفـة وتضـحكه وكـانت مـن جملـة حظايــاه وتسمى ((عرفة)) فجاءهـا سـهم مـن بعـض الشبابيــك فقتلهـا وهي ترقص بين يدي الخليفـة، فانزعج الخليفـة من ذلـك وفـزع فزعـا شديدا، وأحضـر السهم الذي أصابها بيـن يـديه فـإذا عليـه

1() ابن العبـري: تاريـخ مختصـر الـدول ص 255 ع ن د. الصيــاد: المغــول في التاريخ ص 252.

2() سير أعـلام النبـلاء 23\183.

3() انظر نموذجا لهذه المخادعة والخيانة في سير أعلام النبـلاء 23\180، 181.

مكتــوب: إذا أراد اللــه إنفــاذ قضائــه وقـدره أذهـب مـن ذوي العقـول عقولهم[1].

وأمر الخليفة عنـد ذلك بزيــادة الإحتــراز وكثــرت الســتائر على دار الخلافـة، ولكن الأمـر أكبر من ذلك وأعظـم.

ولم يقف هذا الضعـف والهــوان عنـد حـدود دول المشـرق الإسلامي، أو ينتهي بضـعف مركـز الخليفـة العباســي، وضـمور سلطان الخلافة العباسـة، بل جـاوز ذلك إلـى ملـوك وسـلاطين المسلمين في بلاد الشـام ومصــر، فقـد ذكـر ابـن كثيــر – فـي أحداث سنة 658هـ - أن سلطان دمشق وحلب (الملـك الناصـر بن العزيز)، وملك الكرك والشوبـك (الملك المغيث بن العـادل) قد عزموا على قتال المصريين وأخذ مصر منهم، ومعهما الأميـر ركن الدين (بيبرس البندقداري)[2].

وقبل ذلك ذكـر ((الذهبـي)) أن عسكـر الناصــر سـار سـنة 656هـ

1() البداية والنهاية 13\190.

2() المصدر السابق: 13\207.

وعليهـم ((المغيــث)) بــن صـاحب الكــرك، ليأخــذوا مصــر، فالتقاهم (المظفر قطز) وهو نائب (للمنصور علي ولـد المعـز) بالرمـل فكسرهم وأسر جماعة أمراء فضـرب أعناقهم[1].

وقبــل ذلــك كــذلك فــي سنـــة 642هـــ كــان حصــار ((الخوارزمية)) على ((دمشق)) في خدمـة صـاحب ((مصـر)) واشتـد القحط حتى التقى بهـم ((الشاميــون)) ومعهـم عسـكر من ((الفرنـج)) بيـن ((عسـقلان)) ((وغـزة)) فـانهزم الجمعـان وحصدت ((الخوارزمية)) ((الفرنج)) واندك صـاحب ((حمـص)) ونهبت خزائنـه وبكـى وقـال – معـبرا عـن سـر الهزيمـة – ((قـد علمت بأنا لا نفلح لما سرنا تحت ((الصلبان))[2].

قال ابن الأثيـر واصفا أحـوال المسـلمين فـي هـذه الفتــرة بشكل عـام: ((فمن سلم من المسلمين من هاتين الطائفتيــن (التتـرـ والفرنج) فالسـيف بينهـم مسـلول والفتنـة قائمـة علـى ساق))[3].

1() سيـر أعلام النبـلاء 23\181.

2() المصدر السابق 23\176.

3() الكامل في التاريخ 12\361.

إذا علم ذلك كلـه أمكـن تصــور سـرعة انتشـارهم وضـعف المقاومـة أمامهم، وملء الرعب في قلوب الناس مـن حـولهم، والله غالـب على أمره.

3- أسباب سياسية وظروف اقتصادية:

وخلاصة هذا السبب اجتهـاد خاطئ وقـع فيـه خـوارزم شـاه في سياسته مع هؤلاء التتـر، ولا سيمــا فـي حادثـة قتـل التجـار وأخذ ما معهم من الأمـوال – كما سبق البيـان-.

وأضيف هنا مـا ذكـره ابـن الأثيــر كـذلك فـي هـذا الصــدد، وخلاصته التضييق الإقتصادي على جنـد التتــر ومنعهـم الميــرة والكسـوات وغيرها مما كـان يصـل إليهـم مـن قبــل؛ وذلـك أن خوارزم شـاه بعـد أن ملـك مـا وراء النهـر وخلصـها مـن ملـوك ((الخطا)) سد الطريق عن بلاد تركستـان وما بعدها من البــلاد، وأن طائفة من التتـر كانوا قد خرجوا قديما والبـلاد للخطا، فلمـا ملك خوارزم شـاه البلاد منهـم وقتلهـم، واسـتولى هـؤلاء التتــر على تركستـان: كإشغار وبلاساغـون وغيرهـا وصـاروا يحـاربون عساكـر خوارزم شاه، فلذلك منع الميـرة عنهـم مـن الكسـوات وغيرها[1].

---

[1] () الكامل 12\362.

وليس بغريب أن يدعوهم هذا التضييق إلى التحرش بمن ضيق عليهم والإنتقام لأنفسهم، وتأمين أسباب العيش لهم ولجندهم فكان ما كان والله المستعان.

وبعد، فيصح القول بأن الظلم مرتعه وخيم، وأن الله يعاقب عليه بخراب البلاد وفناء الأمم الظالمة إن عاجلا أو آجلا، ولا يسلم من ذلك المسلمون.

والعدل به قامت السماوات والأرض، وقد يُمكّن الله لأصحابه وإن كانوا كافرين، وقد نقل شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: ((إن الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة ولا يقيم الظالمة وإن كانت مسلمة))[1].

كما نقل: ((الدنيا تدوم مع العدل والكفر، ولا تدوم مع الظلم الإسلام))(1).

واستشهد بقول النبي صلى الله عليه وسلم ((ليس ذنب أسرع عقوبة من البغي وقطيعة الرحم))[2]. ثم قال: ((فالباغي

1() انظر: الحسبة في الإسلام لشيخ الإسلام ابن تيمية نشر: قصي محب الدين الخطيب ص 46.

2() رواه البخاري في الأدب المفرد، وأبو داود، والترمذي، وابن ماجه، وابن حبان، والحاكم، وأحمد وابن المبارك في الزهد.

يصرع في الدنيا وإن كان مغفـورا له مرحوما في الآخرة؛ وذلـك أن العدل نظام كل شيء فإذا أقيم أمر الدنيا بعــدل قـامت وإن لم يكن لصاحبها في الآخرة من خلاق، ومتى لـم تقـم بعـدل لـم تقم وإن كان لصاحبها من الإيمان ما يجزي به في الآخرة))(1).

وليس بمسـتبعد أن يكـون قتـل التجـار المستأمنيــن – وإن كانوا غير مسـلمين – علـى أيـدي المسـلمين سـببا فـي تسـلط هؤلاء التتـر على المسلمين وخـراب بلادهـم وسـقوط الخلافــة العباسية على أيديهم.

4- مواقف الملأ وخيانات أصـحاب الملـل والنحـل والأهواء:

وتلـك قاصـمة الظهـر، والحـدث الـذي يحتـاج إلـى جــلاء، والأدوار الخفية التي تحتاج إلى بيان، وهو السؤال المهم في هذا البحث: كيف دخل التتـر بلاد المسلمين؟

ولا أدري أيقصد ابن الأثيـر الإشارة إلى شيء من ذلـك أم لا حينما قال: ((وقيل في سـبب خروجهـم إلـى بلاد الإسـلام غيـر ذلك مما لا يذكر في بطـون الـدفاتر)) وامتنـع عـن كشـفه وهـو يقول:

فكـان ما كـان مما لست أذكـره فظـن خيرا ولا تسـأل عـن الخبـر[1]

وأيـا كـان الأمـر فسـنتتبع هـذا الأمـر، ونجيـب علـى هـذه التساؤلات من خلال بيان المواقف التالية:

أ- الخليفة العباسـي (الناصر):

هو أبو العباس أحمد بن المستضيء بأمر الله، ولي الخلافـة سنة خمس وسـبعين وخمسـمائة للهجـرة ولـه ثلاث وعشـرون سنة، وتوفي سنة اثنتين وعشرين وستمائة، ولـم يـل الخلافـة – مـن بنـي العبـاس – أطـول مـدة منـه[2] فكـانت خلافتـه سـبعا وأربعين سنة[3].

أما عن تشيعه فقد قال ابن واصل: كان الناصـر لـدين اللـه يتشيع ويميل إلى مذهب الإمامية، وهو خلاف ما كان عليه آبـاؤه من القادر إلى المستضيء؛ فإنهم كانوا يذهبون مذهب السلف، وللقادر عقيدة مشهورة في ذلك[4].

1() الكامل 12\362.

2() الذهبي: سير أعلام النبـلاء 22\192.

3() الصفدي: الوافي بالوفيات 6\310.

4() مفرج الـروب 4\166، وعنه الذهبي في سير أعلام النبلـلاء 22\200، وابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب 5\98.

وسئل ((ابن الجوزي)) و((الناصـر)) يسـمع: ((مـن أفضـل الناس بعد رسول الله صلى اللـه عليـه وسـلم؟ قـال: أفضـلهم من كانت بنته تحته))[1] وبهذه الإجابة الجيدة قطع ابن الجـوزي الطريق علـى السـائل الـذي كـان يريـد منـه إجابـة تخـالف رأي الخليفة الناصر، لأن الإجابة تنطبق على أبي بكـر، وعلـي رضـي الله عنهما.

ومن المؤشرات على تشيع ((الناصــر)) كـذلك أن الشـيعة يعتــبرونه مــن أعلام المائــة الســابعة للشــيعة[2]، ويــرون أن ((الشيعة)) في عهـده أخذت بالظهور والإنتشار في بغــداد مـن جديد بعد الإضطهادات التي لاقـوها بعد زوال آل بويـه !![3] .

ويقـول ((ابـن الطقطقـي)): كـان مـن أفاضـل الخلفـاء، يفاوض العلماء، وكان يرى رأي الإمامية[4].

1() مفرج الكـروب 4\166، 167.

2() ترجم له صاحب: الأنوار الساطعة في المائة السابعة (طبقات أعلام الشيعة) أغابزرك الطهراني ص 4-6.

3() الأنوار الساطعـة ص 6.

4() الآداب السلطانية ص 4.

وحين كتب إليه ابن صلاح الدين (نور الـدين علـي) – ويقـال إنه كان يتظاهر بالتشيع - شكاية عن أخيه العزيز وعمه العـادل قال فيها:

مـــولاي إن أبا بكــر وصـاحبه عثمان قـد غصـبا بالسـيف حـق علي
ذي ســـــنة بين الأنام قديمــة أبدا أبو بكــر يجـور على علي

أجابه الناصر:

غصبـوا علياَ حقه إذ لم يكـن بعـد النبـي له بيثرب ناصــر
فابشـر فإن غدا عليـه حسـابهم واصبــر فناصـرك الإمـام الناصر[1]

قال ابن كثيـر: وكان الناصـر شيعيا مثله[2]، كمـا ذكر الصفــدي أن التشيـع ظهـر في خلافـة الناصــر بسـبب ابـن الصـاحب ثـم انطفـى بهلاكه وظهـر التسنن المفـرط، ثم زال وظهـر الفتــوة والبنـدق والحمـام الهادي

1() الأنوار الساطعة ص 5، 21.

2() البداية والنهاية 13\104، ولئن كان ابن كثيـر نقل هذه المكاتبة بينهما من ابن خلكان فلم أحد في الوفيات 3\420 هذه العبـارة، ممـا يـوحي أنهـا مـن كلام ابـن كثير.

وتفنن الناس في ذلك[1].

كما نقل أيضا أن رسول صاحب ((مازندران)) لما دخل بغداد في عهد الناصر كان يأتيه ورقة كل صباح بما عمل في الليل، وصار يبالغ في الكتم والورقة تأتيه، فاختلى ليلة بإمرأة دخلت إليه من باب السر فصبحته الورقة بذلك وفيها: كان عليكم دواج فيه صورة الفيلة، فتحير وخرج من بغداد وهو لا يشك أن الخليفة يعلم الغيب؛ لأن الإمامية يعتقدون أن الإمام المعصوم يعلم ما في الحامل وما وراء الجدار[2].

أما عن موقفه مع ((التتر)) فيقول ابن الأثير: ((وإن كان[3] ما ينسبه العجم إليه صحيحا من أنه هو الذي أطمع التتر في البلاد، وراسلهم في ذلك فهو الطامة الكبرى التي يصغر عندها كل ذنب عظيم[4].

1() الوافي بالوفيات 6\311.

2() المصدر السابق 6\313.

3() الذي في الكامل ((وكان سبب ما ينسبه)) وهذا لا تستقيم به العبارة، والتصويب من البداية والنهاية 13\103.

4() الكامل 12\440.

وفي مرآة الزمان قال سبط الجـوزي: قال لي المعظم بن العــادل: كتـب إلـى جلال الديــن]بـن خـوارزم شــاه[يقـول: تجيء أنت واتفـق معي حتى نقصد الخليفة]الناصـر[فإنه كــان السبب في هلاك أبـي]خوارزم شاه[، وفي مجيء التتـار وجـدنا كتبـه إلى الخطـا وتواقيعه لهم بالبـلاد
والخلع والخيل، فلم يوافقه المعظم على ذلك[1].

وبالجملة فقد حمّل عدد من المؤرخين القـدامى والمحدثين الخليفــة العباســي الناصــر مســؤلية اخــتراق المغــول لبلاد المسـلمين حينمـا حرضـهم علـى غــزو الأراضــي الخوارزميـة، ورأي فيهم القـوة القـادرة علـى رد السـلطان الخـوارزمي علاء الدين محمد – خصمه – إلى صوابه.

فمن القدامى أمثال: ابن الفرات وأبي الفداء، والمقريزي.

ومن المحدثين أمثال: حافظ حمدي.

ومن الأوربيين أمثال: دوسون، وهورث، وبـروان، وكيرتـن، وميور، وجرينا، وهارولد لام.

1() السير 22\242، البداية 13\101.

وفي مقابل ذلك كله يرفض الدكتور القزاز ما نسب إلى الخليفة الناصر، لكنه يوجهه بتقصير الخليفة وعدم تقديره لمسؤليته كخليفة للمسلمين[1].

ب- موقف الملك الرحيم:

البدر لؤلؤ صاحب الموصل[2] والملقب بالملك الرحيم، ملك الموصل نحوا من خمسين سنة، وهو الذي أزال الدولة الأتابكية عن الموصل – وهم أسياده – وكان فيه نزعة تشيع إذ كان يبعث في كل سنة إلى ((مشهد علي)) قنديلا ذهبا زنته ألف دينار، قال ابن كثير: وهذا دليل على قلة عقله وتشيعه[3].

1() انظر تفصيل ذلك فيما كتبته الدكتورة\ عفاف سيد صبره في كتابها: التاريخ السياسي للدولة الخوارزمية ص 155-158، ويلاحظ أن الدكتورة لم ترجح رايا معينا وإن كانت أقرب إلى الرأي الأول حيث قالت: ((وسواء أصح الرأي الأول أم الثاني إلا أن الحقيقة تثبت أن هناك قوى بدأت تلفت نظر المغول إلى القوى الكبيرة التي تجاور حدودهم وهي قوى الخوارزمية. هذا فضلا عن حشدها لعدد من المؤرخين المؤيدين لاتهام الناصر وعدم ذكرها سوى القزاز مخالفا في الرأي.

2() هو السلطان بدر الدين أبو الفضائل لؤلؤ الأرمني النوري الأتابكي مملوك السلطان نور الدين أرسلان شاه ت 657هـ. سير أعلام النبلاء 23\356و 357.

3() البداية والنهاية 13\203.

أما أصله فكان أرمنيا حتى نقل عنه الذهبي أنه كـان يحتفـل لعيد الشعانين لبقايـا فيـه مـن شـعار أهلـه، وكـان يمـد سـماطا عظيما للغاية ويحضـر المغـاني وتـدار فـي غضـون ذلـك أوانـي الخمـور، ويتخاطف الناس ما ينثره من الذهب فـي ذلـك اليـوم، فمقت لإحيـاء شعار النصارى وقيل فيه:

يعظم أعيـاد النصــارى محبـة ويزعـم أن اللـه عيسـى ابـن مريـم

إذا نبهـته نخـوة أرْيحــيّة إلى المجـد قالت أرمنيته: نم[1]

أما عن مساهمته في دخـول التتــر بلاد المسـلمين، فقــد ذكــر الحافـظ

ابن كثير أن جنـود التتـر حين نازلت بغداد سنـة سـت وخمسـين وستمائة جاءت إليهـم أمــداد صـاحب الموصــل – يسـاعدونهم على البغـاددة – وميرته وهدايـاه وتحفه؛ وكـل ذلـك خوفـا علـى نفسه من التتـار ومصانعة لهم[2].

---

[1] () سير أعلام النبـلاء 23\357، وانظر في أرمنيته: البداية والنهاية 13\203.

[2] () البداية والنهاية 13\190.

وقال الذهبي عنه: وكان يصانع التتار وملوك الإسلام[3].

بل نقل بعض المؤرخين أن ((صاحب الموصل)) كان من بين المحرضين لهولاكو على قتل الخليفة العباسي.[2] وحين انفصل هولاكو خان عن بغداد – بعد الوقعة الفظيعة العظيمة – سار الملك الرحيم إلى خدمته طاعة له ومعه الهدايا والتحف، فأكرمه واحترمه ورجع من عنده فمكث بالموصل أياما يسيرة، ثم مات[3].

ونقل الذهبي أنه قلد هولاكو جوهرة يتيمة قدمها هدية له وطلب أن يضعها في أذن هولاكو فأتكأ ففرك أذنه وأدخل الحلقة في أذنه،
وأن الملك الرحيم عاد إلى بلاده (الموصل) متوليا من قبل هولاكو، وقرر عليه مالاً يحمله[4].

3() سير أعلام النبلاء: 23\356. نقل الذهبي أن ((لؤلؤ)) كاتب الخليفة العباسي ((المستعصم)) سِرًّا حين قصد ((هولاكو)) بغداد ينصحه فما أفاد وقضي الأمر (سير أعلام النبلاء 23\181).

2() الجوزجاني: طبقات ناصري ص 430 نقلا عن د. الصياد: المغول في التاريخ ص 269.

3() البداية والنهاية 13\203.

4() سير أعلام النبلاء: 23\357.

بل زاد مستوى العلاقة بين الملك الرحيم وأسرته وبين التتر حتى بلغ المصاهرة فقد تزوج ولده الملك الصالح إسماعيل ابنة هولاكوا، لكن ذلك لم يدم طويلا إذ أغضب الصالح إسماعيل ابنة هولاكو وأغارها، فنازلت التتر الموصل واستمر الحصار عشرة أشهر ثم أخذت، وخرج إليهم الصالح بالأمان فغدروا به واستباحوا الموصل[1].

وتلك عاقبة المواطأة مع الكفار، ونتيجة معجلة لممالأة الفجار، ممن لا يرقبون في المسلمين إلاًّ ولا ذمة، فلا حول ولا قوة إلا بالله.

جـ- الوزير ابن العلقمي:

هو أبو طالب مؤيد الدين محمد بن أحمد بن علي بن أبي طالب ابن العلقمي البغدادي الرافضي[2].

خفف من رافضيته ((الصفدي)) حين قال: أظهر الرفض قليلا. وبالغ في تسنن خصمه الدوادار حين قال: إنه كان يتغالى في

1() سير أعلام النبلاء 23\357.

2() المصدر السابق 23\361، 362 وفيه محمد بن محمد بدل محمد بن أحمد كما في البداية والنهاية 23\201.

السنة [1] فخالف في ذلك غيره – كما سيتضح.

قال السبكي: كان شيعيا رافضيا في قلبه غل على الإسلام وأهله[2].

تولى الوزارة للخليفة العباسي ((المستعصم)) مدة أربع عشرة سنة أفشى خلافها الرفض فعارضته السنة فكبت فتنمّر[3].

وكان – كما قال ابن ثير – رافضيا خبيثا رديء الطوية على الإسلام وأهله[4].

وقال في موضع آخر: ((كان شيعيا جلدا ورافضيا خبيثا))[5].

1() الوافي بالوفيات 1\184.
2() طبقات الشافعية ص 262.
3() سير أعلام النبلاء 23\362.
4() البداية والنهاية 13\202.
5() البداية والنهاية 13\194.

مولده في شهر ربيع الأول سنة إحدى وتسعين وخمس مائة، وهلك في أوائل سنة سبع وخمسين وست مائة[1].

موقف ابن العلقمي وخطواته:

أما عن موقفه مع التتر فهو موقف الخزي والعار؛ إذ سعى في دمار الإسلام وخراب بغداد كما قال الصفدي[2].

ومالأ على الإسلام وأهله الكفار حتى فعل ما فعل بالإسلام وأهله[3]. وهو الذي حفر للأمة قليبا فأُوقِع فيه قريبا – كما قال الذهبي -[4] .

المكاتبة:

لقد كاتب ((هولاكو)) وجسّره وقوى عزمه على قصد العراق ليتخذ عنده يداً وليتمكن من أغراضه(3).

1() الوافي بالوفيات 1\185 – وبهذا يتبين أن عمره ست وستون سنة كما نص عليه الذهبي: سير أعلام النبلاء 23\362، خلافا لما ذكره ابن كثير أن عمره ثلاث وستون سنة: البداية والنهاية 13\202.

2() الوافي بالوفيات 1\184.

3() البداية والنهاية 13\202.

4() سير أعلام النبلاء 23\362.

بل لقـد جر هولاكو وقرر معه أمورا انعكسـت عليه[5].

واسـتخدم فـي هـذه المكاتبـات شتــى الحيــل وبلـغ نهايـة المكـر، قد حكي أنه لمـا كان يكاتب التتـار تحيّــل مـرة إلـى أن أخذ رجلا وحلق رأسـه حلقـا بليغـا وكتب ما أراد عليه بوخز الأبر كمـا يفعل بالوشـم، ونفـض
عليه الكحـل وتركه عنده إلى أن طلـع شـعره وغطـى مـا كتـب فجهزه وقـال: إذا وصـلت التتــر مرهـم بحلـق رأسـك ودعهـم يقــرأون مـا فيـه، وكـان فـي آخــر الكلام: قطِّعـوا الورقــة، فضربت رقبتـه، وهـذا غايــة فـي المكـر والخــزي – كمــا قـال الصفـدي[2] -.

الخطـوات السابقـة:

ولم تكن سياسة المكاتبـة مـع التتــر هـي الأولــى فـي هـذا السياق، بل سبقتها خطـوات مهَّـدت لها وكانت بمثابـة الأرضيـة والمقـدمة لما بعدها؛ فقـد اتخذ ابن العلقمــي سياسـة خبيثـة – في إضعـاف جيش الخلافـة ساهمت فـي دخــول التتــر بغــداد دون مقاومـة تذكــر، إذ اجتهـد قبتـل مجيـء التتــر فـي صـرف الجيــوش وإســقاط اســمهم مــن الديــوان وصــرفهم عــن

5() الوافي بالوفيات 1\184.

2() الوافي بالوفيـات 1\186.

إقطاعاتهم، ونجح في ذلك إذ كانت العساكر في آخر أيام المستنصر قريبا من مائة ألف – منهم من الأمراء من هو كالملوك الأكابر الأكاسر – فلم يزل ابن العلقمي مجتهدا في تقليلهم إلى أن لم يبق سوى عشرة آلاف في أواخر أيام المستعصم[1].

ويقول الذهبي: ((استوزر ((المستعصم)) ابن العلقمي الرافضي فأهلك الحرث والنسل، وحسّن له جمع الأموال، وأن يقتصر على
بعض العساكر، فقطع أكثرهم))[2].

وبلغت حالة الجيش وعساكر الخلافة بالذات مبلغا من الذل والهوان، حتى استعطى كثير منهم في الأسواق وأبواب المساجد، وحق للشعراء أن ينشدوا فيهم الشعر ويرثوهم بالقصائد، وينعوا على الإسلام وأهله[3].

وكان ذلك بسبب سياسة هذا الرافضي المغرض الذي عبر عن سياسته وأثر وزارته على المستعصم ابن كثير حين قال:

1() البداية والنهاية 13\192.
2() سير أعلام النبلاء 23\175.
3() البداية والنهاية 13\191.

((إنه لم يعصم المستعصم في وزارته، ولم يكن وزير صــدق ولا مرضي الطريقة))[1].

وقال في موضع آخر: ((إنه كـان وزيــر ســوء علـى نفسـه وعلى الخليفة وعلى المسلمين))[2].

فلما تحقق لابن العلقمـي مـا أراد، كـاتب التتــار وأطمعهـم في أخذ البـلاد وسهل عليهم ذلك، وحكــى لهـم حقيقـة الحــال، وكشـف لهم ضعـف الرجـال[3].

وهكــذا تبــدو سياسـة ابـن العلقمــي بعيــدة الغــور سـيئة القصد، ولا يحيق المكـر السيء إلا بأهله – كمـا سيتضح بعد.

الخطوة الثالثـة: الغـدر بالقضـاة والفقهـاء وقتـل الخليفة:

ولم تقف سياسـة ابـن العلقمـي عنـد هـذا الحـد، فقـد بـادر بإتخـاذ الخطـوة العملية حين قـدم التتــار، وكـان أول مـن بــرز إليهم فخـرج بأهله وأصحابه وخدمه وحشمه فاجتمع بهولاكو ثــم

1() المصدر السابق نفسه 13\157.

2() المصدر السابق نفسه 13\201.

3() المصدر السابق نفسه 13\192.

عاد فأشـار على الخليفة بالخروج إليه والمثـول بين يـديه لتقــع المصـالحة علـى أن يكـون نصـف خـراج العـراق لهـم ونصـفه للخليفة، فخرج الخليفة في سبعمائة راكب من القضاة والفقهاء والصوفية ورؤساء الأمراء والدولة والأعيـان، فلمـا اقـتربوا مـن منزل هولاكو حُجِبو عن الخليفة إلا سبعة عشر نفسا خلـص بهـم الخليفة، وأنزل الباقون عن مراكبهم ونهبت، وقتلوا عن آخرهم، وأحضر الخليفة بين يدي هولاكو فسأله عن أشياء كثيرة، ويقـال إنه اضطرب في كلامه من هول ما رأى من الإهانات والجبروت، ثم أعيد إلى بغـداد تحت الحوطة والمصادرة يحيط به الطوسـي وابن العلقمـي الرافضيان، ونهب من دار الخلافـة أشـياء كـثيرة من الذهـب والحلي والأشياء النفيسـة، ثم أشـار هؤلاء الرافضة على هولاكـو بعدم مصـالحة الخليفـة وقـال الـوزير: مـتى وقـع الصلح على المناصفة لا يستمر هذا إلا عامـا أو عـامين ثـم يعـود الأمـر إلى ما كـان قبل ذلك، وحسنـوا له قتله،

ويقال إن الذي أشار بقتله الوزير ابـن العلقمــي، ونصـير الـدين الطوسـي، فلما عاد الخليفة إلى هولاكو أمر بقتله[1].

1() البداية والنهاية 13\191، وسير أعلام النبـلاء 23\183.

ويقال إن الخليفة قتـل رفسا وهو في جوالق لئـلا يقع علـى الأرض شيء من دمه فيؤخـذ بثـأره وقيل بـل خنـق، ويقـال إنـه أغـرق. والله أعلم[2].

أسباب المؤامـرة:

ويبقـى بعد ذلك السـؤال المهم: لماذا فعل ابـن العلقمـي ما فعل وأحـل بدار الخلافة ما حـل ؟

وإجابة السؤال تتضح من خـلال منظوريـن، عـام، وخـاص، وإليك البيـان:

المنظور العـام:

أما العام فخلاصتـه خبث طوية الروافـض بشكل عـام علـى أهـل السنـة وتظـرف معتقـدهم فيهـم، وعـدم تحرجهـم مـن التعـاون مع الكفـار على إبـادة المسلمين السنـة، ويكشـف لنـا هذه الحقيقـة بجـلاء شـيخ الإسـلام ابـن تيميـة فـي أكـثر مـن كتـاب، وفي أكثر من موضـع في الكتـاب
الواحد. وينقـل مـن معتقداتـهم **أنهم يكفـرون كـل مـن اعتقد في أبي بكر وعمر والمهاجرين والأنصار** العدالـة أو ترضيّ عنهم كمـا رضي اللـه عنهـم **... ويستحلون دمـاء**

2() البداية والنهاية: 13\192.

مـن خـــرج عنهـم، ويسمـــون مـذهبهم مـذهب الجمهـور ... ويـرون فـي أهـل الشـام ومصـر والحجـاز والمغـرب واليمـن والعـراق والجزيـرة وسائـر بـلاد الإسـلام **أنه لا يحل نكـاح هؤلاء ولا ذبائحهم** ... ويـرون **أن كفر هـؤلاء أغلـظ مـن كفـر اليهـود والنصـارى لأن أولئـك عنـدهم كفـار أصليون وهؤلاء مرتدون ...**

ولهذا السبب – كما قال ابن تيميـة – يعاونـون الكفـار علـى الجمهور من المسلمين؛ فيعاونون التتـار على الجمهـور، **وهـم كانـوا من أعظم الأسباب في خـروج جنكـز خـان ملـك الكفـار إلى بلاد الإسـلام وفي قدوم هولاكو إلـى بلاد العراق،** وفي أخذ حلـب ونهـب الصالحيـة وغيـر ذلـك بخبثهـم ومكرهم لمـا دخل فيه من توزر منهم للمسلمين وغير من تـوزر منهم[1].

وقال أيضا: ((وهـؤلاء – يعنـي الرافضـة – مـن أعظـم مـن أعان التتـار علـى المسـلمين **باليـد واللسـان، بـالمؤازرة والولاية** وغير ذلك؛ لمباينـة قـولهم لقـول المسـلمين واليهـود

1() الفتـاوى 28\477، 478.

والنصـارى، ولهـذا كـان **ملـك الكفـار هولاكـو يقـرر أصنامهم**))[1].

ونقـل أيضـا أن الرافضـة – بشـكل عـام – مـن أهـل الجبـل، والجرد، والكسروان، وأهل جزين وما حواليها وسائـر أهـل هـذا المذهـب فرحوا بمقدم التتـار إلى بـلاد المسلمين[2] ...

ويربـط ابن تيميـة بين موقـف الرافضـة بشـكل عـام مـن أهـل السنـة وموقـف ابـن العلقمـي وأمثـاله بشـكل خـاص ويكشف عن عوامـل ذلك فيقـول:

((**والرافضـة تحب التتـار ودولتهم لأنه يحصـل لهم بها من العـز ما لا يحصل بدولة المسلمين، والرافضـة هـم معاونـون للمشـركين واليهـود والنصـارى علـى قتال المسلمين، وهم كانـوا من أعظم الأسـباب فـي دخـول التتـار قبـل إسـلامهم إلـى أرض المشـرق بخراسـان والعـراق والشـام، وكـانوا أعظـم النـاس معاونـة لهـم علـى أخـذهم لبـلاد الإسـلام وقتـل**

---

[1] () الفتـاوى 28\484.

[2] () الفتـاوى 28\400، 401.

المسلمين وسبي حريمهم، وقضية ابن العلقمي وأمثاله مع الخليفة، وقضيتهم في حلب مع صاحب حلب مشهورة يعرفها عموم الناس... وإذا غلب المسلمون النصارى والمشركين كان ذلك غصة عند الرافضة، **وإذا غلب المشركون والنصارى المسلمين كان ذلك عيدا ومسرة عند الرافضة.** [1]

وفي ((منهاج السنة)) قال شيخ الإسلام ابن تيمية يرحمه الله ((وكثير منهم – يعني الروافض – يواد الكفار من وسط قلبه أكثر من موادته للمسلمين، ولهذا لما خرج الترك الكفار من جهة المشرق وقتلوا المسلمين وسفكوا دماءهم ببلاد خراسان والعراق والشام والجزيرة وغيرها كانت الرافضة معاونة لهم على المسلمين، وكذلك الذين كانوا بالشام وحلب وغيرهما من الروافض كانوا أشد الناس معاونة لهم على قتال المسلمين ... إلى أن يقول: فهم دائما يوالون الكفار من المشركين واليهود والنصارى ويعاونونهم على قتال المسلمين ومعاداتهم))[2].

1() المصدر نفسه 28\527، 528.

2() منهاج السنة 2\104.

السبب الخـاص:

فإذا اتضح المنظـور العام أمكن فهـم السـبب الخــاص فـي موقف ابن العلقمـي مع التتـر في إطاره ولم يفصـل عنـه، وقـد ذكـر المؤرخون أن الذي حمل ابن العلقمــي علـى مـوقفه مـن التتـر أن أبا بكر بن الخليفة المستعصهم والدويـدار الصـغير قـد شـدا على أيـدي السنة حتـى نهـب الكــرخ وتـمّ علـى الشيعــة بـلاء عظيم، فحنق لذلك ابن العلقمـي وأراد الثـأر بسيف التتــار من السنة[1]. وكاتـب هولاكو، وطمّعـه في العـراق،

فجـاءت رسـل هولاكـو إلـى بغــداد، وفـي الباطــن معهـم فرمانات لغيـر واحد والخليفة لا يـدري ما يتم[2].

ونقـل الذهبـي – في إطـار العلاقـات السريّـة المشبوهة أنه قدم إلـى بغــداد رســولان مـن التتــر واجتمعـا بـابن العلقمــي وتعمّت الأخبـار[3].

وقال الصفـدي: فحصل عنـده – بسبب ذلك – مـن الضـغن ما أوجب له أنه سعـى في دمـار الإسلام وخراب بغـداد على مـا

1() سير أعلام النبـلاء 23\362.

2() سير أعلام النبـلاء: 23\180.

3() المصدر نفسه 23\177، وجاء في تاريخ الإسلام عبـارة: ((وتعمـت على الناس بواطن الأمور)) المصدر نفسه هامش (5).

هو مشهـور أنه ضعف جانبه وقويـت شوكــة الـدوادار بحاشيــة الخليفة حتى قال في شعره:

وزير رضـي من بأسـه وانتقـامه بطي رقاع حشـوها النظم والنثر
كمـا تسجع الورقاء وهي حمامـة وليس لها نهـي يطـاع ولا أمـر[1]

وقال ابن كثيـر: ((ولمـا كـان في السـنة الماضيــة]يعنـي سـنة خمس وخمسين وسـتمائة[كـ ان بيـن أهــل السـنة والرافضــة حـرب عظيمة نهبت فيها الكـرخ ومحل ة الرافضــة حتــى نهبـت دور قرابـات الوزيـر (ابن العلقمــي) فاشتــد حنقـه علـى ذلـك فكـان هذا ممـا أهاجه على أن دبّـر على

الإسلام وأهله ما وقع من الأمـر الفظيع الذي لم يؤرخ أبشع منه منذ بنيت بغـداد وإلى هذه الأوقـات))[2].

وربمــا اجتمـع إلـى هـذه وتلـك الوعــود الطيبــة الـتي بـذلها ((المغـول)) وأغرت ((ابن العلقمـي))، والوفــاق والتعـاون مـع

1() الوافي بالوفيات: 1\184.
2() البداية والنهاية 13\191.

نظيـره في المعتقد والتعصب ((الطوسـي)) والذي أصبح وزيرا لهولاكو[1].

المكـر السيء يحيق بأهله:

ولا يحيـق المكـر السـيء إلا بـأهله، ودخـل التتــار وجنـدهم بغداد ووقع ما وقع من الظلـم والفســاد وسـفك الدمــاء وهتـك الأعـراض، ولم يكن ابن العلقمـي بعيدا عن ذلك كلـه ولا سـالما منه ألبتة، وقد أحسن الظـن الذهبـي في تعبيره وكان دقيقا في وصف حالته حين قال: ((وحفـر للأمة قليبا فأُوقِــع فيـه قريبـا، وذاق الهـوان، وبقي يركـب كديشـا وحـده بعـد أن كـانت ركبتـه تضاهي موكب السلطان؛ فمات غبنا وغمـا، وفـي الآخــرة أشـد خزيـا وأشد تنكيـل[2].

ونقـل ((الصفـدي)) ندم ((ابـن العلقمــي)) حيـث لا ينفعـه النـدم – وكان كثيـرا ما يقول: وجرى القضـاء بعكس ما أمّلته – لأنه عومـل
بأنواع الهـوان من أراذل التتـار والمرتدة؛ حكــي أنـه كــان فـي الديوان جالسا فدخل بعض التتـار ممن لا وجاهة له راكبا فرسه، فساق إلى أن وقف بفرسه على بساط الوزير وخاطبه بما أراد،

1() د. الصيد: المغـول في التاريخ ص 277.

2() سير أعلام النبـلاء 23\362.

وبال الفرس على البساط وأصاب الرشاش ثياب الوزير وهو صابر لهذا الهوان يظهر قوة النفس وأنه بلغ مراده ...[1] .

ولم تكن الشيعة بشكل عام – وهم أهل وعشيرته – بمنأى عن هذه الجرائم والمآثم، وعجيب أن يكون حنقه على أهل السنة، وحميته للشيعة تبيح له ذلك كله. ويروى أن بعض أهل بغداد قال له: يا مولانا أنت فعلت هذا جميعه وحميت الشيعة حميّة لهم، وقد قتل من الأشراف الفاطميين خلق لا يحصون، وارتكب من الفواحش مع نسائهم وفضّت أبكارهم مما لا يعلمه إلا الله تعالى، فقال: بعد أن قتل الدوادار ومن كان على مثل رأيه لا مبالاة بذلك[2].

ويقول ابن الوردي: ((أراد ((ابن العلقمي)) نصرة الشيعة فنصر عليهم، وحاول الدفع عنهم فدفع إليهم، وسعى ولكن في فسادهم، وعاضد ولكن على سبي حريمهم وأولادهم، وجاء بجيوش سلبت عنهم النعمة ونكبت الإمام والأمة، وسفكت
دماء الشيعة والسنة))[3].

1() الوافي بالوفيات 1\184.

2() المصدر السابق 1\185.

وأخيـرا ذهب ابن العلقمـي ضحية ما اقترفته يــداه، ومــات بعد دخول التتـر بغـداد بثلاثة أشهـر غما وغبنا. ويقال إن امـرأة رأته وهو في الذل والهـوان وهو راكب في أيام التتـر برذونا وهو مرسم عليه، وسائق يسـوق بـه ويضــرب فرسـه فـوقفت إلـى جانبه وقالت لـه: يـا ابـن العلقمــي، هكــذا كـان بنـو العبــاس يعاملونك ؟ فوقعت كلمتها في قلبـه وانقطـع فـي داره إلـى أن مـات كمدا وغبينة وضيقا وقلة وذلة.[1]

وبلغ إذلال ((التتـر)) له أن جعلوه تابعا لشخص يدعـى ((ابـن عمـران)) كــان خادمـا فـي دولـة المستعصــم.[2] بـل نقــل ((النويـري)) ما هو أشـد من ذلك، إذ استدعـاه ((هولاكو)) فلما مثـل بين يديه سبّـه ووبخه على عــدم موافـاته لمــن هـو غـذي نعمتــه، وأمـــر بقتلــه فقتـــل، وقيــل لــم يقتلــه[3] وذكــر ((السيـوطي)) أنه صار معهم في صـورة بعـض الغلمــان، وأنـه مـات كمـدا[4].

3() تتمة المختصر في أخبار البشر 2\196 عن د. الصياد: المغول فـي التاريـخ ص 274.

1() البداية والنهاية 13\202، الوافي بالوفيات 1\185.

2() عبد الله الشيرازي: تاريخ وصاف ص 41،42 عـن المغـول فـي التاريـخ ص 274.

3() نهاية الأرب في فنـون الأدب ج 26 عن المغـول في التاريخ ص 275.

4() تاريخ الخلفاء للسيوطي ص 378.

إنكار الحقائق خلل في المنهج:

وعلى الرغم من وضوح الحقيقة، وتضافر المصادر على ذكر هذا الموقف المخزي لابن العلقمي، فثمة آراء غريبة لبعض الشيعة المعاصرين تحاول توهين الحقيقة، وتظن بذلك أنها تدفع عن الشيعة عار هذا الموقف وخزيه، ولكن الحقيقة فوق هذا التوهين ، وهي من الثبوت في مصادر الشنة والشيعة أيضا بحيث لا تقبل النقض والإبرام، وإليك نموذجا لهؤلاء:

يقول الدكتور القفاري: ((ومن الغريب أنه نبتت نابتة في هذا العصر من الروافض وحاول توهين القصة، وحجته أن الذين ذكروا الحادثة غير معاصرين للواقعة، وحينما جاء على من ذكر الحادثة من معاصريها مثل أبي شامة شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل ت 665هـ كان جوابه عن ذلك بأنه وإن عاصر الحادثة معاصرة زمانية لكنه من دمشق فلم تتوفر فيه المعاصرة المكانية))[1].

1() انظر: محمد الشيخ حسين الساعدي: مؤيد الدين ابن العلقمي وأسرار سقوط الدولة العباسية، عن مسألة التقريب بين أهل السنة والشيعة 2\263 د. ناصر القفاري.

يقـول الدكتــور القفــاري: ((ثـم بحثـت فـي كتـب التاريـخ فوجـدت شـهادة هامـة لأحـد كبــار المـؤرخين تتـوفر فيـه ثلاث صفـات:

1_ أن الشيعة يعتبـرونه من رجالهم.

2- أنه من بغـداد.

3- أنــه متوفــى سـنة 674هــ؛ فهـو شيعــي بغــدادي معاصـر للحادثة ذلك هو الإمام الفقيه علـي بـن أنجــب المعـروف بـابن السـاعي الـذي قــال: (... وفـي أيـامه – يعنـي المستعصـم – استولت التتـار على بغـداد وقتلوا الخليفـة وبـه انقضـت الدولـة العباسيـة مـن أرض العــراق، وسـببه أن وزيــر الخليفـة مؤيــد الدين ابن العلقمـي كان رافضيـا ...)))[1].

على أن إنكـار الحقـائق ليـس سمــة الشـيعة المعاصــرين فحسـب بــل سـبقهم إلـى ذلـك شـيعة آخــرون؛ فهــذا ((ابـن العلقمـــي)) العلـــوي ألــف كتــابه ((الفخـــري فـــي الآداب السلطانية)) سنة 701هـ في الموصـل، ودافــع بحمــاس عـن

---

[1]() مختصــر أخبــار الخلفـاء ص 136-137، عـن: د. ناصــر القفــاري مسـألة التقريب بين أهل السنة والشيعة 2\263.

موقف ابن العلقمي، بل غالى في الثناء على دولة المغول بشكل مثير أبعده عن الإنصاف كما يقول الزركلي[1].

ومما قاله في سبيل الدفاع عن موقف ابن العلقمي: ((ونسبه الناس إلى أنه خامر، وليس ذلك بصحيح، ومن أقوى الأدلة على عدم مخامرته سلامته في هذه الدولة؛ فإن السلطان هولاكو لما فتح بغداد وقتل الخليفة سلم البلد إلى الوزير وأحسن إليه وحكَّمه، فلو كان قد

خامر على الخليفة لما وقع الوثوق إليه))[2].

ويظهر للمتأمل أن هذا الدليل من علائم التهمة والمواطأة لا من دلائل البراءة والنزاهة، ولكن ((ابن الطقطقي)) لا يقف عند هذا الحد، بل يسوق رواية تفيد أنه ظل وفيّاً للمستعصم إلى آخر لحظة، وأنه لم يلبِّ دعوة هولاكوا إلا تحت ضغط الخليفة![3].

1() الأعلام 7\174.

2() الفخري في الآداب السلطانية ص 295 عن د. الصياد: المغول في التاريخ ص 273.

3() المصدر السابق ، الصفحة نفسها.

وقد سبق بيان ما يكشف تهافت هذه الآراء والمرويات، ومع ذلك فقد تصدى الدكتور الصياد للرد على ابن الطقطقي وممأ قاله: ((إذا كان صاحب ((الفخري)) قد دافع بحرار عن موقف ابن العلقمي وسقى جاهدا لدفع تهمة الحيانة عنه، فما ذلك إلا لأنه شيعي مستنير حس بفداحة الجرم الذي أقدم عليه صاحبه إذ كان بتصرفه هذا عاملا هاما في ضياع دولة وذهاب شخصية لها مقام ديني كبير في نفوس المسلمين، خصوصا وأن هذا التحول الخطير قد تم على أيدي قوم من الكفرة، ثم أن النكبة لم تكن مقصورة على أهل السنة وحدهم بل كانت عامة شاملة قاسى منها أهل السنة وأهل الشيعة..))[1].

ويبقى بعد ذلك ردّ الشيعة بعضهم على بعض وتضارب آرائهم دليلا لا يستطيع الشيعة رفضه بحجة أنه من خصومهم أهل السنة؛ فهذا ((الششتري)) ت 1019هـ القاضي – وهو مؤرخ شيعي كبير – يعترف صراحة بدور الرافضة في سقوط بغداد ويقول: ((إن ابن العلقمي كاتب هولاكو، والخواجة نصير الدين الطوسي وحرضهما على تسخير بغداد للإنتقام

1() المغول في التاريخ ص 273، 274.

من العباسيين بسبب جفائهم لعترة سيد الأنام صلى الله عليه وسلم وآله))[1].

وبمثل ذلك يمكن إسقاط محاولات الدفاع والتبرير الساذج عند ((أغابزرك الطهراني)) الذي قال: ((... ولو لم يكن دهاء ابن العلقمي لما اختلف مصير بغداد عن مصير ((تيسفون)) التي انقطع عنا جل أخبارها))[2].

وبهدا يتبين تهافت هذا الإنكار، وتضافر كتب الشيعة مع كتب السنة على إثبات دور ابن العلقمي في سقوط بغداد ودخول التتار. هذا فضلا عن ثبوته في المصادر الأوربية[3].

د- النصير الطوسي:

هو محمد بين محمد بن الحسن نصير الدين الطوسي، أبو عبد الله، أو أبو جعفر، أحد الفلاسفة والمنجمين، ولد بطوس –

1() مجالس المؤمنين ص 400 عن الدكتور الصياد: المغول في التاريخ ص 276.

2() أغابزرك الطهراني: الأنوار الساطعة في المائة السابعة طبقات أعلام الشيعة ص 152، وهل يريد هذا الكاتب لبغداد أكثر مما حصل !

3() أمثال: Lestrange: بغداد في عهد الخلافة العباسية، ترجمة بشر يوسف فرنسيس ص 292، ونسيمان: تاريخ الحروب الصليبية ص 522 عن د. الصياد: المغول في التاريخ ص 272، 275.

قرب نيسابـور – سنة سبع وتسعين وخمس مائة، ووفاته ببغـداد سـنة اثنيـن وسـبعين وسـت مائـة[1]. كـان لـه اهتمـام بـالعلوم العقلية، وكان رأسا في علوم الأوائــل، ولـه اهتمـام بالفلسـفة، وقد عدد الزركلي طائفة غير قليلة من كتبه[2].

أما عقيدته، فكـان فاسد المعتقد، حكم عليه بعض العلمــاء بالإلحــاد ونسـبوا إليـه عبــادة الأصنــام، ورام تغييـر القــرآن والصلاة فلم يقدر عليه؛ يقول ابن القيـم: ((نصـر في كتبه قدم العالم، وبطلان المعــاد، وإنكــار صـفات الـرب جـل جلالـه مـن علمه وقدرته وحياته وسمعه وبصـره، وأنـه لا داخــل العـالم ولا خارجه وليس فـوق العـرش إل ه يعبــد ألبتـة! واتخـذ للملاحـدة مدارس، ورام جعل إشارات إمـام الملحـدين ابـن سـينا مكــان القـرآن فلم يقـدر على ذلك فقال: هي قــرآن الخـواص، وذاك قـرآن العوام، ورام تغيير الصـلاة وجعلهـا صـلاتين فلـم يتـم لـه الأمـر، وتعلـم السحــر فـي آخـر الأمــر فكــان سـاحرا يعبــد الأصنـام))[3].

1() انظـر: الوافي بالوفيـات للصفـدي 1\179، 183، الأعلام للزركلي 7\257.

2() الأعـلام 7\257، 258.

3() إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان 2\263.

وقــف ابــن القيــم علــى كتــاب لــه ســماه ((مصــارعة المصارعة)) عارض فيه الشهرستاني في كتـاب ((المصـارعة)) الذي رد فيـه علـى ابـن سـينا فـي القـول بقـدم العـالم وإنكــار المعـاد، ونفي علم الـرب وقـدرته، وخلقـه للعـالم. يقـول ابـن القيـم: ((وقفت على الكتابين فوجدت الطوســي قـد نصـر أن الله تعالى لم يخلـق السـموات والأرض فـي سـتة أيـام، وأنـه لا يعلم شيئا، وأنه لا يفعـل شيئا بقدرته واختياره، ولا يبعث من في القبـور))[1].

ثــم يختــم ابــن القيــم القــول فــي معتقــده ويقــول: ((وبالجملـة فكــان هـذا الملحــد هـو وأتبـاعه مـن الملحـدين الكفارين بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر))[2].

ولعــل هـذا يفســر لنـا علاقتــه ((بالإسماعيليــة)) وتـأليفه كتـاب ((أخلاق ناصـري)) لمحتشم الإسماعيليــة ناصــر الـدين أبو الفتح عبد الرحيم ت 655هـ[3].

1() إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان 2\263.

2() المصدر السابق نفسه.

3() انظـر: فؤاد الصيـاد: المغول في التاريخ ص 240 حاشية رقم (1).

بـل تحدثنا كتـب التاريــخ أن الطوســي كــان يقيـم مـع الإسماعيلية في قلعـة ((ميمـون دز))[1].

أما القول بأن إقامته – ومـن كـان معـه – مجـبرين، وأنهـم سـئموا الإقامــة عنـد الإسـماعيلية[2] فـذلك يحتــاج إلـى دليـل يعضده. وإلا فكيـف نفهم أن الإسماعيلةي لفـرط ثقتهـم فهـي وتقدمه عندهم كـان هو مبعوثهم إلى هولاكو حينما هدد زعيمهم ((خورشـاه)) الذي استشار أركان دولته فاستقر رأيهم علـى أن يرشل إلى هولاكو الخواجة نصيـر الـدين الطوســي مـع طائفـة من الوزراء والأعيـان والأئمة ومعهم الهــدايا والتحـف، فوصـلوا إليه في شـوال سنة 654هـ[3] .

وكان الطوسـي كذلك على صـلة ((بالنصيريــة)) وقـد ألـف كتـابا وضعه لهم، وليس بمقنع مقولـة الصفـدي – وهو ينقل هذا الخبر – ((وأنا أعتقد أنه مـا يعتقـده؛ لأن هـذا فيلسـوف وأولئـك يعتقدون إلهية علي))[4]. فعقيـدة الطوسـي – السالفة- تخـوله لمثل هذا وأزيـد.

1() انظـر: ميرخوانـد: روضة الصفا 5\76 عن المغول في التاريخ ص 241.

2() الصيـاد: المغول في التاريخ ص 241.

3() المصدر السابق ص 242.

4() الوافي بالوفيات 1\181.

ويبـدو أن الطوسـي يجيد التلوّن ولديه القدرة على العيــش فـي أي بيئـة، بـدليل أنـه أظهـر الصـدق والإخلاص عنـد مقـابلته لهولاكو، الأمـر الذي جعل له عند هولاكو منــزلة عاليــة، فكــان يقربـه ويستـشيـره ويطيعـه[1].

وهــو وإن وزر ((للإســماعيلية))[2] فقــد كــان مرافقــا لـ((هولاكو)) حين افتتـح قلاعهـم ((الألمــوت))[3]، وانتقــل مـن الــوزارة عنــد ((الإسماعيليــة)) إلــى الــوزارة عنــد ((هولاكــو التتـري)) إذ انتخبه ليكون في خدمتـه كالوزيـر المشيـر[4].

والطوسـي هو مبعوث ((هولاكو)) إلى الحلّة[5]. وحين عـاد هولاكو إلى بغـداد كان الطوسـي مع ابن العلقمـي في صــحبته، ويقال إنهم هم الذين حسَّـنوا له قتـل الخليفـة العباســي وعـدم المصالحة معه[6].

1() الوافي بالوفيـات 1\179، الأعلام 7\257.

2() البداية والنهاية 13\254.

3()المصدر السابق 13\192.

4() المصدر نفسه 13\192.

5()الأنوار الساطعة في المائة السابعة ص 155.

6()البداية والنهاية 13\191 يلاحـظ تردد ابن كثير في الجزم بدور الطوســي مـع التتـر في قتل الخليفة العباسـي حتى قال في موضـع آخــر: ((وعنـدي أن هـذا لا يصدر من عاقل ولا فاضـل)) البداية والنهاية 13\254.

ويحــدد ((ابـن القيــم)) دور ((الطوســي)) مـع التتــر فـي محنة بغـداد ويقول – إثر حديث عن الرافضـة عمومـا-: ((ولمــا انتهــت النوبــة إلــى نصيــر الشــرك والكفــر الملحــد وزيــر الملاحـدة، النصير الطوسـي وزير هولاكو، شفـا نفسه من أتبـاع الرسـول وأهل دينه فعرضهم على السيـف حتى شفــى إخـوانه من الملاحـدة واشتفـى هو؛ فقتـل الخليفة والقضـاة والفقهــاء والمحدثيــن، واستبقــى الفلاســفة والمنجميــن والطبـائعيين والسحــرة ونقـل أوقـاف المـدارس والمساجــد والربط إليهم وجعلهم خاصته وأوليـاءه))[1] ...

هـ - مواقـف وأدوار أخـرى:

لم يكـن دور ((الرافضــة)) ينتهـي عنــد حـدّ هـؤلاء، فثمــة شخصيـات ومواقـف أخرى نذكـر منها:

*موقـف الشيخ الرافضـي ((الفخـر محمـد بـن يوسـف بـن محمد الكنجـي)) الذي كان يصانع ((التتـر)) على أمـوال الناس، وكـان – كمـا قال ابن كثير – خبيث الطويـة مشرقيـا ممالئا لهـم

1() إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان 2\263، وانظــر: شـذرات الـذهب لإبـن العماد الحنبلي 5\339، 340.

على أموال المسلمين، فقتلته ((العامة)) وسط الجامع إثر انتصار المسلمين في معركة عين جالوت[1].

*وموقف ((محمد بن الحسن المعروف بابن طاووس الحلي)) الذي أهدى كتابه ((البشارة)) إلى ((هولاكو)) المغولي، فسلم الحلة والنيل والمشهدين من القتل والنهب حين سقوط بغداد سنة 656هـ، وردّ إليه ((هولاكو)) النقابة بالبلاد الفراتية فحكم في ذلك قليلا ثم مات دارجاً[2].

*و((محمد بن أبي العز الحلي)) الذي نقل الرافضة أنفسهم أنه اشترك مع ((سديد الدين)) والد العلامة الحلي، في كتابة الرسالة إلى هولاكو وطلب الأمان لأهل الحلة[3].

*ويعترف ((الرافضة)) مرة أخرى أن بلدة ((كاشان)) قد نجت من فتنة هولاكو بسبب ((أفضل الدين الكاشاني)) الذي كان معاصرا للطوسي ويقال إنه خاله[4].

وهل تسلم ديار الرافضة ومشاهدهم من بطش التتر لولا المصانعة والمواطأة والمكاتبة ؟

1() البداية والنهاية: 13\210.

2() الأنوار الساطعة ص 157.

3() الأنوار الساطعة: ص 165.

4() المصدر نفسه ص 30.

ولقد بلغ الأمر أن من دخل دور الرافضة فهو آمن، وكذلك تخلّص ((ابن أبي الحديد)) صاحب ((شرح نهج البلاغة)) من مقتلة المغول لكونه في دار ابن العلقمي، ثم حضر عند الخواجة نصير الدين الطوسي ففوّض إليه خزائن الكتب ببغداد مع غيره ...[1] .

*وابن أبي الحديد هذا وصفه ابن كثير بالغلو في التشيع وذكر علاقته بابن العلقمي فقال: ((كان حظيا عند الوزير ابن العلقمي لما بينهما من المناسبة والمقارنة والمشابهة في التشيع والأدب والفضيلة))[2].

ونقل ((المجلسي)) أن ابن أبي الحديد ألف ((شرح نهج البلاغة)) وأنشأ قصائد ((السبع العلويات)) لأجل ابن العلقمي وباسمه[3].

* بل كان منهم من ولي للمغول كما كان ((محمد بن محمد بن محمد الجويني)) حاكما لـ((أصفهان)) في عهد ((أبقاخان المغولي))[4].

1() أغابزرك الطهراني: الأنوار الساطعة ص 88.

2() البداية والنهاية 13\190.

3() انظر: أغابزرك الطهراني: الأنوار الساطعة ص 88، 150.

4() المصدر السابق ص 173.

وكـذلك يبــدو أثــر التقـارب والممـالأة واضـحا جليـا بيـن الرافضة والتتـر، ولئن لـم يستسـغ بعـض المؤرخيــن مـن أهـل السنة ذكره كلـه أو بعضـه فـي بطــون الكتـب كمــا أشـار ابـن الأثيـر، فها هم المؤرخون الرافضة لا يرون بأسـا مـن ذكـره بـل ربمـا اعتبـروه مفخـرة ودهـاء كمــا وصـف ((الطهرانــي)) دور ابن العلقمـي، وكمـا حاول ((ابن الطقطقـي)) المدافعــة لكـن دون جـدوى[1].

و- دور الإسماعيليـة:

ومع التقـارب بين الرافضة الإسماعيليـة فـي المعتقـد فقـد كشــف ابـن الأثيــر بجــلاء عــن دور مبكــر ((للإسماعيليــة)) بدخول التتـر بلاد المسلمين؛ فقـد أرسـل مقــدم الإسماعيليــة الملاحـدة سنة 628هـ إلى التتــر يعرفهـم ضـعف جــلال الـدين بالهزيمـة الكائنـة عليه من علاء الدين
كيقبــاذ ومـن الأشـرف، ويحثهـم علـى قصـده عقيـب الضـعف، ويضمن لهم الظفـر به للوهن الذي صار إليه[2].

1() انظـر ص (68) من هذا البحث.
2() الكامل في التاريخ 12\495.

ويعلق ابن الأثيـر على سياسـة جـلال هذا ويقول: ((وكــان سيىء السيـرة، قبيح التدبيـر لملكه، لم يتـرك أحدا من الملـوك المجاورين إلا عاداه ونازعه الملك وأسـاء مجاورته))[3].

* * *

الخاتمـة

الحمـد لله الذي هدى ووفق وأعان ويسر. وبعـد:

3() المصدر السابق 12\495.

فإن في دراسة التاريخ بعمـق استجــلاءً لأحـداث الماضـي، وأخذ العبـرة للحاضر واستصلاحا للمستقبل بإذن الله ..

ولئن مرت في تاريخ المسلميـن فواجع ينـدي لها الجبين فلا يكفـي نعي هذه الأحـداث أو التبـاكي علـى مـا حصـل لحواضــر العـالم الإسلامــي، بـل يجـدر بالدارسـين والباحثيــن أن يجلُّـوا الصورة، وأن يتعمقـوا في بحث أسبابها الظاهرة والخفيّــة، وأن يحذّروا أمتهم كيـد الكائدين، ويكشفوا لهم أساليب الماكريـن.

فالتاريخ سـجل محفـوظ، والأحـداث تتــكرر، والمأســاة إذا وقعت مرة بسبب أو آخــر مـن المسـلمين فلا يليـق أن يتكــرر الخطأ، وأن تغمض الأعين عن مكمـن الداء.

والحادثة – قيـد الدراسـة – كشفـت عـن أدوار خفيـة أحـاط صانعوها بالخليفة واستهدفت الخلافـة، والمكـر السـيىء يحيـق بأهله.

كمــا تكشـف عـن أثــر الظلـم والتنــازع بيـن المسـلمين واستثمـار الخصـم لهذه الأجواء وسهولة الإجتياح والإفسـاد فـي بلاد المسلمين، إذا أصبح
العـدو صديقا، وأُمِّن الخائن، واستعين بغير المسلم.

ولئن توقفت الدراسة عن بيان الفصول الأخيرة لحدث التتار في بلاد المسلمين، وكيف تمّ النصر عليهم بعد حين من الزمن رصت فيه الصفوف، واجتمعت الكلمة، وقصد المجاهدون؛ فلاآن الدراسة مركزة على بيان أسباب الكارثة دون التفصيل في نهايتها. – فثمة بحوث أخرى تعني بهذه القضية، ولكن المتأمل يلاحظ بين البدء والنهاية اتصالا وثيقا؛ فضعف المسلمين وخيانات بعضهم وتنازعهم في البداية؛ كل ذلك ساهم في الهزيمة. ثم ساهم في النصر عليهم في النهاية تمحيص الصفوف، وصدق النوايا، والتوكل على الله، ومن يتوكل على الله فهو حسبه، فهل يعي المسلمون أسباب النصر وعوامل الهزيمة ؟.

أرجو أن يسهم هذا البحث في بيان ذلك.

* * *